عمر سيفينتشجول
Telegram:@mbooks90

شيراز والأمير

ترجمة: مريم محمود إسماعيل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

انظر هناك ضوء أزرق، إنّه يُضيء دائمًا في منتصف الليل

عندما يأتي الربيع، كنا نذهب إلى البيت الصيفي الجبلي ونبقى هناك طوال الصيف. فبينما كانت المدينة تتحمّص من شدة الحرارة، كان الطقس هناك ربيعيًا دائمًا.

كانت خيمتنا الكبيرة في أجمل جزء من وادٍ أخضرٍ بين الجبال. وكان لدينا كوخ صغير مُكوّن من خيمتين كبيرتين، ورثناه عن جدّنا، وقد كان كافيًا بالنسبة لنا.

كنتُ أحب ليالي البيت الصيفي الجبلي بشكل خاص. فالضوء كان خافتًا بالخارج. حيث النجوم تمطر فوقنا، والقمر يبتسم لنا هو الآخر.

ذات ليلة كنتُ جالسًا عند باب الكوخ. وكان الظلام دامسًا. والرياح كانت تهب مع صوت طنين عالٍ.

جاءت والدتي تنسل مثل الظل وجلست بجواري. أعتقد أنّ النوم قد طار من عينيها. كنا صامتين فترةً طويلة معًا.

ثم وضعت يدها على كتفي وقالت: "انظر، هناك ضوء أزرق على الجبل المقابل. يُضيء دائمًا في منتصف الليل. يمكن ملاحظته فقط في الليالي الحالكة. لقد نهض الرجلُ الصالح لصلاة التهجد."

فسألتُ مُتحيّرًا: "من الذي يستيقظ يا أمي؟ وأي ضوءٍ أزرق؟"

"إنّه وَلِيّ. لا أعرف اسمه. قد عاش في العصور القديمة. ودائمًا ما يستيقظ في الوقت نفسه."

تمعنتُ النظر، وبالفعل رأيتُ ضوءًا أزرق. كان يتناقص تارةً ويتزايد تارةً أخرى. والذي لا يُدقِّق النظر لا يستطيع ملاحظة هذا.

قلتُ: "ربما يكون انعكاسًا لضوءٍ من السماء يصطدم بالصخور."

قالت أمي: "لا، ليس هناك ضوءًا في السماء لينعكس. هناك أطلال بين الصخور، والضوء يشع من هناك. كما أنّ قبره موجود هناك. وبعض جدران المبنى لا تزال

قائمة. حيث كانت هناك غرفة صغيرة أيضًا ذات قبة. لقد ذهب والدك ورآها وأخبرني عنها، لذا أنا أعلم بهذا الأمر."

أصابني ذلك بالفضول. ولم أكن لأقدر على الراحة دون حل هذا اللغز. فكان عليّ أن أذهب وأرى بعيني. سوف يستغرق الأمر ساعات في تسلق المرتفعات للوصول إلى الأطلال.

قلتُ: "سيكون أول شيء أفعله غدًا هو الذهاب إلى هذه الأطلال التاريخية وتفقدها، يا أمي."

قالت: "كما تحب. لكن كن حذرًا، لا تنس أن ثرثل وتنفث. فالجن يعيش في الأطلال. اقرأ سورة الفلق والناس، وانفث في راحة يدك، ثم امسح يديك على رأسك وبدنك."

لم أستطع النوم هذه الليلة. وخرجتُ مُبكرًا في طريقي ذاهبًا إلى الأطلال؛ حيث لا طير يطير ولا عِير تسير. مشيتُ دون توقف حتى وقت الضُحى. وأخيرًا وصلت إلى وجهتي. عندما رأيتُ الأطلال الموجودة بين الصخور، شعرتُ بالحماس.

ألقيتُ السلام لعله يوجد أحد الروحانيين. ونظرًا لاحتمالية كون هذه المخلوقات غير المرئية من الجن الخبيث، فقد اتبعت نصيحة والدتي.

انتظرتُ قليلًا وأخذتُ أنصت إلى ما بداخل الأطلال وما حولها. فلم أسمع أي صوت سوى هزيم الريح وزقزقة طيور الجبل.

لفترةٍ من الوقت، أخذتُ أدقق في الجدران المُنهارة، والممرات التي ربما كانت مغلقة في فترة من الزمان، والأحجار المُغطاة بالطحالب.

دخلتُ إلى الغرفة ذات القبة بشيءٍ من الخوفِ. كانت هناك طيور بالداخل. وعندما دخلتُ، طارت الطيور مُصدرة صوت صاخب. فبلغ قلبي حنجرتي.

كان الظلام جزئيًا. فأشعلتُ المصباح اليدوي الذي أخذته معي. وبدأت أقلبُ نظري من حولي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت الأعشاب الضارة قد نَمَتْ على الأرض والجدران. ورأيتُ السحالي على الأرض تجري هنا وهناك.

جلستُ على صخرة ضخمة وأنا أقول: "إن شاء الله لا توجد ثعابين.". لقد كانت هذه الحجرة بسيطة. فلم يكن لها بابٌ ولا نافذةٌ.

بدأتُ في تفحص الغرفة، على أملِ العثور على تذكار، أو أثر، أو بصمة من الماضي.

كنتُ متحمسًا عندما رأيتُ حفرةً صغيرةً قريبة من السقف. لقد كانت هذه الحفرة من النوع الذي أطلق عليها القدماء اسم "مقلاة".

كان من المستحيل لشخصٍ لا يتمعن النظر أن يلاحظ شيئًا. يا تُرى هل من الممكن أن يكون هناك شيء مخفي في الداخل؟

كان عليّ أن أجد طريقة للبحث. وضعتُ الحجارة فوق بعضها وحوّلتها إلى سلالم، لكنني لم أستطع الوصول مرةً أخرى. فقررتُ أن أتفحص بيدي الحفرة التي تُشبه المقلاة.

ارتعشتُ من الفزع عندما لمست أصابعي شيئًا ناعمًا، وكدتُ أسقط.

ماذا كان هذا؟ هل من الممكن أن يكون ثعبانًا ملتفًا؟ لكنه بدا لي وكأنه جماد.

وبمنتهى المُخاطرة، رفعتُ السلم الحجري لأعلى قليلًا وألقيتُ نظرة.

نعم، لقد كنتُ مُحقًا، لقد كان جمادًا. بدا وكأنه غلاف جلدي. كان مُغطى بالعفن. فأمسكته بمنديلي.

كان مؤلف هذا الكتاب شخصًا حكيمًا وأديبًا.

كان الغلاف في شكل أسطوانة. وكان مُنكمشًا من كلا الجانبين ومربوط بإحكام بحبل جلدي. قمتُ بفك الحبال. ثم بدأتُ في فتح الطيات الجلدية بعناية.

أخرجتُ الدفتر من داخله. كانت الأجزاء التي لامست الجلد متعفنة. فكان من الضروري تنظيفها.

قمتُ بالبحث مرةً أخرى في الأطلال، لكنني لم أجد أي شيء آخر. عندئذٍ أخذتُ الغلاف والدفتر معي وسلكتُ طريقي.

أخبرتُ والدتي، التي كانت تنتظرني بقلقٍ أمام الكوخ، بما رأيته. وأريتها ما بيدي.

كانت بعض أوراق الدفتر متعفنة وفاسدة. فقمنا بتنظيفها جميعًا بعناية. حينها ظهرت الكتابة الموجودة على الصفحات السليمة.

قلتُ: "إنّه مكتوب بخط قرآني. كما أنّه لا توجد حركات تشكيل فوق الحروف. نحتاج إلى العثور على شخص يمكنه قراءة هذا."

قال والدتي: "إنّ خسريف أفندي يقرأه."

كان خسريف أفندي رجلًا عجوزًا تلقى تعليمه في المدرسة في سنوات شبابه. كنتُ أراه جالسًا تحت شجرة الدُّلب بين أوقات الصلاة خلال النهار. من ناحيةٍ كان يُسبّح، ومن ناحيةٍ أخرى كان يتأمل السهول الممتدة والجبال أمامه.

ذهبنا إليه. وشرحت له الأمر بإيجاز. تحدثتُ أيضًا عن النور الأزرق الذي يُضيء في وقت مُحدّد من كل ليلة.

قلتُ: "كان هناك وَلِيّ يعيش قديمًا في هذه الأطلال. من المحتمل أنك سمعت عنه أيضًا. فكر في الأمر قليلًا، ربما تتذكر شيئًا ما."

"نعم، يبدو أنني أتذكر. لكنني لست متأكدًا. تحدث المرحوم جدي عن وَلِيّ عاش في العصور القديمة. لكني لا أعرف من كان هذا الشخص، وهل قبره هناك أم لا."

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أريته الدفتر وطلبتُ منه قراءته. أخرج نظارته من جيبه ولبسها. ثم قام بفحصه من البداية إلى النهاية. شعَرَ بالحزن عندما رأى الصفحات التي أصبحت غير مقروءة بسبب التعفن. بعد ذلك قرأ جزءًا منها في الداخل.

بعد أن علّق قائلًا: "هذا الشخص حكيم وأديب. إنّ النور يشع من كتاباته."، بدأ في القراءة بصوتٍ عالٍ.

لم أفهم بعض الكلمات التي استخدمها، لكنني فهمتُ جوهر الموضوع.

قلتُ: "انتظر لحظة من فضلك. أريد تحويل النص إلى الحروف الجديدة."

قال: "حسنًا."، فأخرجت قلمًا ودفترًا وقلتُ: "أنا جاهز. تفضل."

بدأ يقرأ بصوتٍ مرتجف. وكان يتوقف بين الحين والآخر ويقول:

"ما شاء الله، يا له من كلام حكيم! يا له من كلام جميل!"

أحيانًا كنا نتحدث حول النص. لذلك كتبتُ حوالي عشرين صفحة.

ثم قال: "لا يمكننا إنهاء قراءته كله اليوم يا بُني. عيناي متعبة أيضًا. تعال كل يوم بعد صلاة العصر، لنقرأ ونكتب جزءًا جزءًا."

قلتُ: "حسنًا يا سيدي."

استمرت قراءتنا وكتابتنا على هذا المنوال لأيامٍ عِدّة. وكنتُ أسأل عن كلمات تبدو غامضة بالنسبة لي؛ فكان يُوضّحها.

نالت النصوص الموجودة في الدفتر إعجابي. فقد كانت مليئة بالقصص الشائقة والكلمات التي تُوسّع الأفق والمدارك أيضًا.

وقمتُ بكتابة النص بأكمله بالأحرف الجديدة. والكتابات التالية مُقتبسة من الدفتر التاريخي الذي كُتِبَ قبل سبعة قرون.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النهاية ستكون جميلة، وسيأتي ربيع جديد.

اسمي "مصعب". مسقط رأسي يقع في أرض الفُرس؛ في مكانٍ بعيدٍ لا يمكن الوصول إليه إلا سيرًا على الأقدام لشهور. يُطلقون عليه "شيراز".

وُلِدتُ في عهد السلغوريين. وكنتُ أعرف التركية والفارسية نظرًا لكون والدي فارسيًا وكون والدتي تركية.

لم أغادر مسقط رأسي أبدًا حتى بلغتُ الرابعة والعشرين من عمري. بعد ذلك، وصلتُ إلى ما أنا عليه الآن بفضل نصائح سعدي الشيرازي، الذي كان أستاذي في العلم ومُرشدي في الحياة.

وعندما أرسلني إلى أراضي الأناضول، قال كلماتٍ في غايةِ الروعة ومُفعمة بالأمل.

"يا بُني، إنني أرسلك إلى هناك لأنك مُعتاد على أسلوبي ولأنك تعرف اللغة التركية. إنك ستعيش العديد من الابتلاءات أينما ذهبت. ورياح الفتنة ستعصف في الأجواء وسيول الأذى سوف تتدفق على الأراضي. لكن لا تدع كل هذا يُثبط عزيمتك. لأنَّ نهايتهم جميعًا ستكون جميلة. إن شاء الله سيأتي ربيع جديد. وستُفسح العواصف المدمرة المجال للرياح المثمرة. وستصفو المياه العكرة، وتتفتح الأزهار النادرة على الأرض. ستكون هناك صحوة وقيامة عظيمتين. أود أن تساهم في هذا أيضًا، باسمك ونيابة عني. أنت لا تزال شابًا. وقوتك في محلها. فابذل قُصارى جهدك. وقُص على الناس ما سمعته مني. كُن مصدر أمل ومواساة للمحتاجين. هيا، فليفتح الله لك الطريق!"

عندما انتهى من الكلام، عانقني بلطف. قبّلتُ يده وافترقتُ عنه مع الدموع.

مرت ستة وستون عامًا على هذا الوداع. لم أستطع أن أرى فيها أستاذي مرةً أخرى. لكنني كنتُ أشعر معنويًا به دائمًا. أحيانًا يظهر في أحلامي، وأحيانًا يدخل في رؤياي.

لقد قضيتُ حياتي الفانية في السفر من أرض إلى أخرى لنشر ما تعلّمته من أستاذي.

كان عهد السلاجقة. لقد كانت أعوامًا مُضطربة للغاية. كان الباطنية خلف الفتنة والفساد. كما استمرت الهجمات المغولية والصليبية.

عند الحاجة ذهبتُ إلى الجهاد. لقد أصبتُ مراتٍ عِدّة. كنتُ أتمنى أن أكون شهيدًا في ساحة الجهاد، لكن التقدير الإلهي تجلّى بطريقةٍ أخرى، فرضيتُ بقدري.

وأخيرًا تقدّمتُ في السن بشكلٍ كبير. ولم يعد لدي القدرة على المشي. فانضممتُ إلى المجموعة، وقررتُ أن أمضي ما تبقى من حياتي في هذا البناء.

يُعرف هذا المكان باسم "مدرسة الإبداع". قصة تأسيسها مثيرة للفضول بشكل غير عادي. إن شاء الله سأخبركم بها لاحقًا. هناك أحداث مهمة وقصص مليئة بالعبرة يجب أن أكتبها أولًا.

السبب في أنني أكتب ذكرياتي في هذا الدفتر، هو رغبتي في ترك إرث للأجيال المُقبلة.

لقد شهدتُ أحداثًا تاريخية غير عادية. تواجدتُ شخصيًا في بعضها. والأخرى تلقيتها كدروسٍ لا نظير لها من أستاذي سعدي الشيرازي، قنديل العلم والمعرفة.

كان عليّ أن أدوّن ما رأيته، وما عشته، وكذلك الحكم والعبر التي وهبني إياها ربي. لم أستطع السماح لهم بالدخول معي إلى القبر.

وهكذا تحركتُ بناءً على هذه الرغبة والنية. فاشتريتُ دستة من الذويّ. حيث كنتُ أملأ الدواة بالحبر المُستدام.

فضّلتُ الورق المصنوع من الجلد الرقيق نظرًا لأنّه طويل الأمد. وبدأتُ الكتابة بالبسملة والتي هي بداية كل خير.

أريد أن تقرأ الأجيال المُقبلة هذا. لعل أحدهم يستفيد منه فيقرأ عليّ الفاتحة واحدًا يتلو الآخر.

ليس لديّ ذُرية ليستمر نسلي. فلم تتح ليّ الفرصة للزواج. لكنني لم أندم على ذلك أبدًا. لقد اتخذتُ كل الأطفال، الذين هم عبيد ربي الصالحون، أولادًا لي وأحببتهم

أيضًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان يستمع لي بعناية ويُقيم وزنًا لكلامي.

في الواقع، لا توجد أهمية بالغة لحياتي الشخصية. لكن الأوقات التي قضيتها مع أستاذي وما سمعته منه في غاية الأهمية.

عرّفني والدي على أستاذي. لهذا السبب يجب أن أقول نبذة عنه.

كان اسمه "بهتيار". وقد كان مشغولًا بالتجارة. إذ كان يُدير الأعمال التي ورثها عن جدي. فكان تاجر قماش.

كان يحب العلم ويحترم العلماء. لكنه لم يستطع الذهاب إلى المدرسة. لهذا السبب، كان يرغب كثيرًا في أن أكون طالب علم.

لم يُحصّلَ العلم، لكنه كان صاحب حكمة نظرًا لاستفادته من أهل العلم والمعرفة. لقد كان صاحب أخلاق وأدب لا نظير لهما.

بعد زواج شقيقتيّ الكبيرتين ومغادرتهما، بقيتُ أنا ووالدي ووالدتي في المنزل. والدتي التي كانت رمزًا للعطف كان اسمها "نور الهدى".

أحبّ والدي والدتي حبًا جمًا، وكان يُظهر حبه كلما سنحت الفرصة. كان أيضًا مُتفهمًا جدًا لي. فكان يستمع لي إذا تكلمت ويُقيم وزنًا لكلامي.

أنا أيضًا لم أقصر في إبداء الاحترام له. كنتُ راضيًا عن كل بلاءٍ حتى لا يتأذى قلبه أو يحزن.

كنتُ أريد مساعدته في تجارته لكنه لم يقبل. لقد كانت أمنيته الوحيدة هي أن أنشأ كإنسانٍ فاضلٍ.

كانت هناك مدرسة صغيرة في حينا، وهي بعيدة تمامًا عن وسط المدينة. كنتُ أذهب إلى هناك يوميًا وأتلقى دروسًا من سراج الدين أفندي، الذي كان رجلًا مُسنًا للغاية. بهذه الطريقة تعلمتُ القراءة والكتابة وحصّلتُ بعض المعلومات الأساسية.

كنتُ أحب قراءة الكتب. وكنتُ مهتمًا إلى حدٍّ بعيدٍ بالعلوم والفنون والأدب. فكان والدي يُحضر الكتبَ التي يصادفها أثناء رحلاته، ويجعلني أقرأها ويستمع إليّ.

ذات صباح جاء إلى غرفتي. قال: "مصعب، استعد الآن. سوف نذهب لزيارة شخصٍ مهم.". لقد كان الحماس واضحًا من صوته ووجهه.

تساءلت قائلًا: "حسنًا، يا والدي العزيز. لكن من سنزور؟"

"إنّه شخص رائع في العلم والحكمة، بالإضافة إلى الفن والأدب. لقد كان خارج البلاد منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا. ثم عاد أخيرًا. اسمه شرف الدين. وشهرته سعدي."

كنتُ أتحدثُ مع والدي من ناحية، وبدأتُ في الاستعداد للرحلة من ناحيةٍ أخرى.

"يا تُرى لماذا اتخذ اسم سعدي اسمًا مُستعارًا له، هل يوجد سبب ما؟"

"لم يكن هناك مجالًا لأسأله عن هذا. ربما بسبب انتسابه إلى السلطان سعد بن زنكي. حيث كان يعمل والده في القصر."

"ماذا كان يعمل؟"

"في الواقع إنه سرٌ يا بُني، لكن نظرًا لوفاته فلا يوجد مانع من إخبارك. لقد كان في قسم الاستخبارات. ومن هنا أتت علاقته الحميمة مع والدي."

"ماذا تقصد؟ هل كان جدي أيضًا يعمل في الاستخبارات؟ حسب معلوماتي إنّه تاجر."

"نعم لقد كان تاجرًا. اعتاد الذهاب والإياب للبلاد الأخرى بهدف التجارة. وكان ينقل معلومات مهمة، يحصل عليها أثناء رحلاته، إلى والد سعدي."

"ثمّ؟"

"لقد بدأت السنوات العصيبة لسعدي. فقد مات والده فجأةً. وفي هذه المرحلة، قام والدي بواجبه فلم يدخر مساعدة عن عائلة صديقه."

"يا للجمال! لقد كان رجلًا مُخلصًا."

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

"نعم لقد كان كذلك. وأنا وسعدي أيضًا أصبحنا صديقين حميمين. لقد طعنّا في السن فعلًا. إننا ولدنا في بداية القرن السابع الهجري. وقد أمضينا العديد من السنوات معًا. علاوة على هذا، نحن أقارب من بعيد."

لم يسعني إلا أن أطرح سؤالًا كان يدور في ذهني.

"لقد كان والد سعدي يعمل في الاستخبارات. إنها وظيفة مليئة بالمخاطر. هل كان ذلك سببًا في وفاته المبكرة؟"

"لا أعرف. من الممكن. لكن ليس كل شيء ممكن يحدث."

"حسنًا، هل يا تُرى من الممكن أن يكون سعدي يعمل في الاستخبارات أيضًا؟ لقد خطر هذا الاحتمال في ذهني نظرًا لابتعاده سنوات عديدة وتجوله من بلدةٍ إلى أخرى."

نظر والدي إليّ بدهشة. أعتقد أنه لم يكن يتوقع مثل هذه الأسئلة مني.

ثم قال: "يا بُني، هذا مجرد ظن وتخمين. إذا كان المرء سيُصدر حُكمًا بشأن مسألةٍ ما، فيجب أن يكون معه دليل. إنّه لا يُبنى حُكم على الاحتمالات."

"حسنًا، أنت مُحق يا والدي العزيز. ماذا حدث بعد ذلك؟"

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

"افترقتْ طُرقنا. فقد ذهب سعدي، بدعم من السلطان على الأرجح، إلى المدرسة النظامية في بغداد من أجل تحصيل العلم. ولم يعد إلى هنا بعد التخرُّج. كان يتجول من بلدٍ إلى أخرى منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا. فكنت على وشك فقدان الأمل. لكن بطريقةٍ ما ها هو قد جاء. ولكن..."

صمتَ والدي فجأةً.

فتساءلتُ قائلًا: "ماذا حدث يا أبي، لماذا صمت؟"

"إنَّه مُنعزل في منزله. لا يُقابل أحدًا أبدًا. يقول }أريد أن أمضي حياتي المُقبلة في عزلة{. لا أعرف إذا كان سيرحب بنا أم لا."

قلتُ: "إن شاء الله سيرحب بنا. لنجرب حظنا. فهذا الشخص أثار اهتمامي أنا أيضًا."

كان والدي رجلًا في غاية الأدب. كان يمكنه التخلّي عن حقه حتى لا يُزعج الآخرين. كنتُ أندهش كيف كان تاجرًا بهذا الوضع. أعتقدُ أنني كنتُ أكثر ارتياحًا مقارنةً بوالدي.

على كلٍّ... قام السائس الذي يعمل عندنا بتجهيز الخيول بناءً على تعليمات والدي. امتطينا الخيول وقطعنا طريقنا. وبعد التحرُّك لمدة ساعة واحدة تقريبًا، وصلنا إلى منزل قديم مُكوَّن من طابقين في وسط الحديقة.

استقبلتنا سيدة عجوز. اتضح أنها أخته الكبرى. عرَّف والدي نفسه. فأخذت هذه السيدة، التي تُدعى "جولفيدان"، تُفكّر قليلًا ثم تذكَّرت والدي.

لقد استحضرا الأيام الخوالي لبعض الوقت. كانا يتحدثان عن أشخاص وأحداث منذ حوالي أربعين أو خمسين عامًا.

عندما تحدث والدي عن سبب مجيئنا، قالت السيدة جولفيدان: "آه يا أخي! إنَّ سعدي لا يُقابل أحدًا. لقد أتعبتم أنفسكم هباءً. سوف أبلغه سلامكم."

حزن والدي لهذه الإجابة. وكان على وشك العودة. فتدخلت أنا.

قلت: "يا سيدتي، من فضلك أخبريه أننا جئنا. فإذا رفض سنعود. وإذا وافق سندخل ونلتقي. ربما يريد رؤية والدي لأنّه صديق الطفولة."

فكرت السيدة جولفيدان قليلًا ثم قالت: "لا مانع من السؤال، هلا انتظرتم قليلًا."

عادت بعد فترة وجيزة. وكان وجهها يُضيء بابتسامة. قالت: "يا للدهشة، لقد وافق على مقابلتكما، إنّه في انتظاركما."

دخلنا المنزل. ثم صعدنا السلم الخشبي إلى غرفته في الطابق الثاني. وألقى والدي التحية.

بعدما تلقّى سعدي التحية سار نحونا وعانق والدي ولم يتركه فترةً طويلة. نظرتُ فإذا بالدموع في عيونهما هما الاثنين. إنّ فرحة اللقاء بعد سنوات قد أطربت المشاعر.

دلنا على الطريق ثم جلسنا. وبدأ في الحديث بسرور الوصال الذي جاء بعد أربعين عامًا من الشوق. في أثناء ذلك كنتُ أتفحص الغرفة بعينيّ.

كانت هناك سجادة قديمة مفروشة على الأرض. وقد وُضِعَ فراش من الصوف ووسائد من القش أسفل الجدار. وكان يوجد فوق طاولة دواة وحبر ورزمة ورق.

كما كان يمكن رؤية أغصان الأشجار الخضراء الزمردية من خلال النافذة، حيث تضيء أشعة الشمس، التي تتسرب بين الأوراق، أرضية الحجرة.

قدّمني والدي بشكلٍ مُختصر، قائلًا: "هذا ولدي الصغير "مُصعب". لديه نهم للعلم. أردتُ أن أعرّفه عليك."

نظر "سعدي" إليّ وابتسم بحنان. لقد كان النور الذي يشع من وجهه يطمئن الروح ويسعدها. لم أر قط شخصًا مثله من قبل. إنّه المكان المناسب لأقول إنني مفتون.

سألني قائلًا: "كم عمرك يا بُني؟"

"عمري أربعة عشر عامًا يا سيدي."

"ما شاء الله! إذن أنتَ تحب العلم، أليس كذلك؟"

"نعم. كما أنني أحب الحكمة والأدب. لقد أحضر لي والدي الكتب، وأنا أقرأها."

"يا للروعة! ليجعل الله لك نصيبًا من العلم النافع!"

قدّمت لنا السيدة "جولفيدان" شراب العسل. لقد كان طعمه لذيذًا. لقد وضعتْ فيه أشياءً أخرى غير العسل، استطعت تمييز وجودها لكن لم أستطع تمييز ماهيتها.

كان سعدي ووالدي يستحضران الأيام الخوالي. وما ينساه أحدهما كان يُذكّره به الآخر. حينًا كانا يبتهجان ويضحكان، وحينًا كان يصيبهما الحزن. أصبحت المحادثة ودية. لقد أصبحا أطفالًا تقريبًا.

كان سعدي يرتدي ثيابًا سادة بلون الأرض. وكان يوجد فوق رأسه طربوش بُني منسوج من الموهير.

كان شعره طويلًا بعض الشيء، لكنه لم يكن يصل إلى شحمة الأذن. وكانت لحيته متوسطة الطول وكانت بيضاء إلى حدٍّ ما.

كان حاجباه ورموشه وجزء من شاربه أميل إلى السواد. وكان لون بشرته أشبه بمزيج من لون القمح الفاتح واللون الوردي.

وكان له في كل حال وفي كل حركة وفي كل سلوك أدبٌ ولباقةٌ ولطفٌ وظُرفٌ.

من يذهب إلى السوق خاوي اليدين لا يمكنه إحضار حقيبته ممتلئة.

قال والدي: "يا أخي، بعد عودتك من السفر انزويتَ في بيتك. ولم تعد تُقابل أحدًا. ومع ذلك فإنّ العالم بأسره في حاجةٍ إلى علمك وحكمتك. فإلى متى يستمر هذا الحال؟"

وبعد الصمت برهة، قال سعدي "استغفر الله" وشَرَح سبب عزلته وعدم مُقابلة أحد.

"في إحدى الليالي، كنتُ أفكر في حياتي التي أوشكت على الزوال وكنتُ أحترق على عمري الذي ضاع. نظرتُ حولي، فوجدتُ العديد من أقراني قد مات ولم يبق أحد. تألمتُ وقلتُ لنفسي: }يا رجل، لقد عشتَ أكثر من خمسين عامًا ولا تزال غارقًا في الغفلة. ألا تعلم أنّ الشخص الذي يقضي حياته سدى ولا يعمل هو مثل المسافر الذي لا يستعد للرحلة بالرغم من أنّ طبول الرحيل تدق. كل إنسان يأتي إلى هذه الدنيا يبني بناءً، وعندما يحين أجله يرثه غيره، وبعد ذلك يموت أيضًا الشخص الذي ورث. فما هو العمر؟ إنّه كثلج تعرّض لشمس الصيف. وقد ذاب هذا الثلج ولم يتبق منه إلا القليل، لكنك لم تكن تدري. إنك لا تزال غافلًا في غرور. ومن يذهب إلى السوق خاوي اليدين لا يمكنه إحضار حقيبته ممتلئة. والرجل الذي يأكل محصوله وهو لا يزال أخضر سيحتاجه وقت الحصاد.{ وبعد التفكير في هذه المعاني وقول المزيد من الكلمات لنفسي، قررتُ وأقسمتُ أن أنعزل في زاويةٍ وألا أقابل أحدًا أو أتحدث إلى أحد."

علّق والدي على هذا قائلًا:

"يا صديقي، لقد فكّرتَ في أشياءٍ جيدة وقلتَ لنفسك كلمات ذات مَغْزَى. ويجب على كل شخص أن يقول لنفسه هذه الكلمات التي مثل اللؤلؤ. لكن إذا حبست نفسك في المنزل ولم تسمح للناس بالسماع إلى حديثك، فمن أين سيعرف الناس هذه الكلمات؟ المُحادثة هي بابُ المتجر. فإذا أغلقته بالقفل، فمن أين سيعرف الناس إذا كان بداخله جواهر أم حطب! نعم، الصمتُ مُهم أيضًا. لكن الإنسان العاقل يعرف متى يصمت ومتى يتحدث. كما تقول لقد قررتَ ولقد أقسمتَ. وأيضًا التخلّي عن هذا

القرار بيدك. إذا كنتَ قد أقسمت فهناك حل. يمكنك التكفير عن ذلك، وبعدها تكون حر اللسان. يا أخي! إذا سنحت لك الفرصة فتحدث بكلماتك اللطيفة، فإنك ستصمت فعلًا عندما يأتيك ملك الموت."

لقد كان سعدي يستمع بعنايةٍ. وأنا أيضًا كنتُ أنتظر بشغف. ثم فهمتُ بعد ذلك جيدًا سبب إصرار والدي. إن شاء الله سأكتب في أقرب وقت ممكن.

ثم أضاف والدي إلى حديثه: "لقد زيّنتَ عقلك بنور العلم، وأنرتَ قلبك بالحكمة، ولكن ماذا يجب أن يفعل عامة الناس؟ كيف سيسلك الناس درب الحياة بدون نور؟ هل تعلّمتَ كل هذا العلم والحكمة والمعرفة حتى تصمت؟ لن أرحل من هنا حتى أخذ منك وعدًا!"

بناءً على هذا قال سعدي: "أخي بهتيار، لقد لمست كلماتك روحي. لكنني لا أريد أن أخذ قرارًا مُتسرعًا. سأعيد التفكير في الأمر. هيا دعنا نخرج إلى الحديقة قليلًا."

بدأنا نتجول في الحديقة. وفقًا لتقويم ملك شاه، كنا في بداية شهر أبريل الذي يُعد الشهر الثاني من الربيع. كانت المنطقة خضراء خصبة. وكانت البلابل تُغرّد أناشيد جميلة على منابر الأغصان. وقد سقط ندى من اللؤلؤ على أوراق الورود الحمراء. كان يُشبه هذا قطرات العرق على خد حسناءٍ غاضبة.

قال سعدي: "أخي بهتيار، لقد اقترب المساء. ابق هنا الليلة. ولنتسامر."

وافق والدي، وبقينا. بعد الطعام، خرجنا إلى الحديقة مرةً أخرى وبدأنا في التجول.

يأتي الخريف، فتفسد الحديقة، ولا تبقى الوردة ولا البستان.

لقد كان حقًا مكان يشرح الصدر. حيث كانت أغصان الأشجار مُتشابكة مع بعضها البعض. إذا نظرتَ إلى الأرض، كنتَ تظن أنّ هناك حبات بلور مُبعثرة. وبدت السماء كسقف مزخرف. حيث القمر مُعلّق هناك مثل القنديل.

كان هناك جدول ماء يجري في منتصف الحديقة. وكان خرير الماء يمتزج مع زقزقة العصافير الليلية التي تُغرّد بانتظام فوق الأغصان.

واصلنا المشي حتى وصلنا إلى تعريشةٍ في وسط الحديقة، اخترنا مكانًا وجلسنا. وكان والدي قد قطف باقة من الورود أثناء المشي وتركها على الطاولة.

نظر سعدي إلى والدي بحب وقال: "يا أخي، لحسن الحظ أنك جئتَ ولحسن الحظ أنك قلتَ هذه الكلمات. كانت جميعها كلمات لا يمكن أن يقولها إلا صديق حميم، وقد لمست روحي. لذا أنا فكّرتُ واتخذتُ قرارًا."

"ما هو؟"

"لطالما أحببتَ الورود. وها أنت تقطف الورود مرةً أخرى. لكن كما تعلم، الوردة لها عمر قصير.

يأتي الخريف، فتفسد الحديقة، ولا تبقى الوردة ولا البستان."

"نعم، للأسف."

"لقد قررتُ تأليف كتاب. سيكون اسمه "البستان". أتمنى أن تنشرح قلوب الذين سيقرأون ما سأكتبه هناك! وأتمنى ألا تحوّل العودة إلى الدنيا ربيعه خريفًا! وأتمنى أيضًا ألا تلمس رياح الخريف أوراقه!"

عند الاستماع إلى هذا الخبر، دفع والدي باقة الورود التي أمامه جانبًا وقال: "يا سعدي، أنت رجل تفي بالعهد. عندما تُعطي وعدًا، فإنك تحافظ على كلمتك. ليكن الله عونًا لك! لكن لدي طلب منك."

قال سعدي بصوتٍ في غاية اللطف:

"ما هو طلبك يا أخي، أخبرني بصراحة."

"كما قلتُ لك، إنّ مصعب مولع بالعلم ومُحب للأدب والحكمة. ومدرسة الحي لم تعد كافية بالنسبة له."

"ماذا تريد مني أن أفعل؟"

"دعه يأتي إليك كل يوم، وليكن تحت طوعك. افعل به ما تشاء. وأثناء ذلك، دعه يستفيد من علمك وأدبك وحكمتك وفنك."

نظر سعدي إليّ وهو يبتسم.

"حسنًا، دعنا نرى ما إذا كان مصعب يريد هذا أيضًا. ما تقوله يتطلب تضحية كبيرة، لكن يمكن أن يتم ذلك بعزمه وقراره. ولا يمكن أن يتم بناءً على رغبتنا فقط، وإلا استمر لفترةٍ قصيرةٍ."

بِناءً على هذا أخذتُ أتوسل إليه. فقلتُ: "أرجوك اقبلني يا سيدي. لقد قال والدي القليل. أنا على استعداد لأن أكون خادمك. دعني أكون دواةً في يدك، وغضا في طريقك. حياتي فداء لك!"

بعد أن داعب رأسي بحنان أمسكني من كتفيّ ورفعني على رجله.

"حسنًا، لقد تم قبولك، الآن أنت تلميذي. سوف تُفكّر في هذا عند كل كلمة، وسوف تتذكر هذا عند كل حركة. فهناك علاقة مشتركة عجيبة بين المعلم والطالب. لذا من الآن فصاعدًا، خطأك هو خطأي، وميزتك هي ميزتي. ستأتي كل صباح وقت الضحى ولن تفارقني."

"حسنًا سيدي. ماذا أحضر عند قدومي؟"

"احضر نفسك فقط. فلا يجب أن تكون معي بجسدك، وعقلك وقلبك في مكانٍ آخر."

"كيف تريد مني أن أخاطبك؟"

"كيفما تشاء ..."

"سأقول لك (أستاذي) دائما."

ابتسم وقال "حسنا".

وهكذا بدأت علاقتي مع أستاذي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحضرتُ الأمانة، وأعطيتها لأستاذي.

أعطاني والدي حصانًا أصيلًا منمشًا. كنتُ أمتطيه كل صباحٍ في وقت السحر وأذهب إلى منزل أستاذي.

كنتُ أقضي ساعتين على الأقل يوميًا في الطريق. وقد كنتُ أتوه دائمًا وأتعب. فأصبح التنقل أكثر صعوبة خاصةً في الطقس السيىء والممطر.

وفقًا لهذا قال أستاذي: "يا مُصعب، يُمكنك البقاء في الكوخ الذي في الحديقة من الآن فصاعدًا. إنّه يحتاج إلى بعض التصليحات والتنظيف. تحدّث إلى والدك ووالدتك. فإذا أذنوا لك يمكنك المجيء والاستقرار."

قلتُ: "حسنًا سيدي، سأفعل."

عندما وصلتُ إلى المنزل، أخبرتُ والدي ووالدتي باقتراح أستاذي. فوافق والدي على الفور.

لكن والدتي ترددت قائلة: "لا أتحمل البقاء بعيدة عنك."

تحدّثتُ عن صعوبات الذهاب في الصباح والعودة في المساء كل يوم. كما تحدّث والدي بكلماتٍ مُقنعة.

ثم قالت والدتي لوالدي: "دعه يقضي هنا يومًا من الأسبوع على الأقل."

Telegram:@mbooks90

وافق والدي. واتخذ القرار. كنتُ سأعود إلى المنزل أيام الجمعة، وأبقى ليلةً واحدة وأعود.

وجد والدي حِرَفِيًا، وجعله يُصلح الكوخ. وقمنا بتنظيفه جيدًا من الداخل والخارج. وبعد وضع الأشياء الضرورية، بدأتُ في البقاء هناك.

بدأ أستاذي في كتابة مُؤلّفه بِناءً على الوعد الذي أعطاه لأبي. كان يقول، وأنا كنتُ أكتب.

عندما انتهى الجزء الأول من المؤلّف، أراد إرسال نسخة إلى سلطان السلغوريين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أبو بكر بن سعد.

سلّمني لفافة الورق وأخذتها إلى القصر. عرّفتُ نفسي للحرّاس عند البوابة. وأخبرتهم سبب مجيئي. فقاموا بنقل سبب زيارتي إلى مساعد السلطان.

فأذن السلطان وأخذوني إليه. وبعد أن أبلغته تحيات أستاذي، سلّمته لفافة الأمانة.

كان مسرورًا جدًا. ثم قال لي: "انتظر بالخارج.". فخرجتُ وانتظرتُ.

بعد قليل جاءني المساعد وأعطاني صندوقًا مُزخرفًا بالصدف.

قال: "سلطاننا أمر بأن تأخذ هذه إلى أستاذك."

أخذتُ الأمانة وسلّمتها إلى أستاذي. فتح الصندوق. وأخرج منه كيسًا من الذهب ورسالة قصيرة. وبعد التحية كان يقول سلطاننا: "يا سعدي! أعلم أنك لا تأخذ المال من أي شخص. لكنني لم أرسل لك هذا الكيس بنية الإحسان. هناك سبب آخر. إنني أريد شراء مؤلّفك الجديد. فإذا لم تقبل، سأُعيد اللفافة التي أرسلتها. هذا الذهب من ثروتي الخاصة. أرجو أن تقبل وترسل لي المؤلّف جزءًا يتلو الآخر كلما كتبتَ."

غرق أستاذي في تفكير عميق. وبدأ يمشي ذهابًا وإيابًا في الحديقة. أما أنا فقد كنتُ أتتبعه.

وأخيرًا جلس على جذع شجرة ونظر إليّ. ثم سألني قائلًا: "ما رأيك يا مصعب؟"

استجمعتُ شجاعتي وقررتُ أن أقول رأيي. فقلتُ: "يا أستاذي، إنك لم تحصل على ثروة جاهزة. ولم يعد من المناسب لك بعد هذا العمر أن تتجول في الأسواق. كما أنّه عليك أن تعمل باستمرار من أجل مؤلّفك. لذا يجب ألا يتعكر ذهنك بمشكلة قوت العيش. خلاصة القول، أنت بحاجة إلى هذا المال."

"حسنًا ، دعنا نقبل بذلك لمرة واحدة. ثم نشتري بهذه الأموال الأبقار والأغنام والدجاج وخلية نحل وما إلى ذلك. فالأرض المحيطة بمنزلنا مناسبة لتربية الحيوانات وزراعة الخضروات. إن شاء الله لا نعد محتاجين لأحد."

"حسنًا أستاذي، سأفعل كل ما يلزم."

أخبرث والدي بالأمر. ثم ذهبنا إلى السوق معًا وقمنا بالتسوق. حيث اشترينا كل ما قاله أستاذي. وعندما حان الوقت زرعنا الخضراوات في الأرض المحيطة بالمنزل.

كانت السيدة جولفيدان أكثر سعادة بهذا العمل. فكانت تشاهد ما نفعله عن قُرب، وكانت تشعر بالبهجة وتدعو لنا.

أود أن أقول معنى يتبادر إلى ذهني هنا بمناسبة المكانة.

يعتقد الأشخاص الذين لا يعرفون حقيقة الأمر أنّ أرباب العلم والفن يعيشون حياةً فخمةً تتناسب مع شهرتهم.

وهذا خطأ كبير. فلقد عاش أكثر العلماء والكُتّاب في فقر وحاجة.

فبعد أن بدأث في الإقامة مع أستاذي، شاهدث هذا الحال في حياته وكنث حزينًا. كما أكدت تجاربي اللاحقة هذه النتيجة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من العبث أن تُشعل شمعةً عندما تكون الشمس مشرقة.

كلما تعرّفت عليه عن قُرب، زاد حبي لأستاذي. لقد كان بالفعل شخصًا صالحًا وتقيًا. كان استثنائيًا في الأدب والأخلاق. وكان صمته في محله، وحديثه أيضًا في محله.

ذات يوم ذهبنا إلى المسجد لأداء صلاة المغرب. بعد الصلاة جاء إلينا رجل وعرّف عن نفسه. لقد سمع عن اسم أستاذي. وأراد أن يلتقي به ويتحدث معه.

سأل بعض الأسئلة. كما جاء أشخاص آخرون كانوا قد رأونا وبدءوا في الاستماع إلى المحادثة.

كان أستاذي يُفكّر جيدًا قبل الإجابة على الأسئلة ثم يتحدث. لقد كانت هذه عادته.

قبل المغادرة قال الرجل، الذي كان يطرح الأسئلة: "لقد سمعتُ الكثير عنك في مجلس سمَر. قالوا إنّ سعدي جيد ولطيف، لكنه يتحدث ببطء شديد."

لم يكن من المُستحسن أبدًا نقل الغيبة، التي حدثت في حق أستاذي، إلى حضرته. شعرتُ بالانزعاج، لكن لزمتُ حدي في هذا الأمر.

انتظرتُ بفضول لأرى ما سيقوله أستاذي. بعد الصمت لبعض الوقت، بدأ بسرد قصة.

"في سالف العصر كان هناك وزير اسمه بوزور جميهر. لقد كان شخصًا في غاية الذكاء والتعقل. بعض الناس بحثوا عن عيوب فيه فوجدوا ما يلي: [إنّه يفكر كثيرًا قبل التحدُّث، ويجعل الناس ينتظرون، ويتحدث ببطء شديد.]

عندما سمع بوزورجميهر ما يُقال عنه، قال: [نعم، أنا أفعل هذا. فمن الأفضل لأي شخص أن يفكر فيما سيقوله بدلًا من أن يندم بعد قوله كلمة خاطئة ويُفكّر في سبب قولها.]"

شررت كثيرًا بهذا الجواب الممتاز. شعر الرجل الذي نقل الكلام بالإحراج وأحنى رأسه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم قال أستاذي أيضًا كلمات أخرى في هذا الصدد. اسمحوا لي أن أكتب ما أتذكره:

"إنّ الشخص الحكيم الذي يعرف الكلام يُفكّر أولاً ثم يتكلم. وهو يعرف كيف يصمت قبل أن يسكته الآخرون. فإما أن تتحدث بأسلوب يليق بإنسان ذي أدبٍ وتربيةٍ أو أن تصمت كالحيوان. من يتدخل في كلام غيره ليُبيّن مميزاته فقد أعلن جهله. ومن واجبك أن تلتزم الصمت في حضرة شخصٍ أعلم منك. لأنّه من العبث أن تشعل شمعة عندما تكون الشمس مشرقة. فخرزك الزجاجي عديم الفائدة في السوق الذي يُباع به الماس واللؤلؤ والياقوت والذهب. فإنك لن تتحدث بقسوة مع شخص يتحدث بلطف. ولن تقاتل شخصًا يدق باب الصلح.

لقد سألوا لقمان الحكيم وقالوا: "ممن تعلّمتَ الحكمة؟"

فأجاب قائلًا:"تعلمتها من المكفوفين."

قالوا: "كيف؟"

فقال: "إنهم لا يخطون خطوة حتى يفحصوها جيدًا بواسطة عصيهم."

العالِم الحقيقي لا يذهب إلى باب السلطان.

كان أحد أيام الخميس. كنتُ أجلس مع أستاذي في التعريشة. كان يروي بعض ذكرياته وأنا أكتب. وعندما أوشكنا على إنهاء عملنا جاء الجنود إلى بوابة الحديقة. كان بجانبهم عربة خيل مُزخرفة.

نزلوا من على ظهر الخيول ودخلوا الحديقة. ثم ألقى علينا التحية شخص توقعتُ أنّه ضابط من ثيابه.

قال: "يا سيدي، لقد أرسلنا أميرنا. إنّه يدعوك إلى القصر للتسامر. وقد أعدت المائدة. والعربة جاهزة."

عندئذٍ قال أستاذي: "إنّه للطف وتواضع عظيم أن يدعوني أميرنا. إنني أشكره. لكنني لا أذهب إلى دعوات من هذا النوع. ربما لا يعرف هذا. فأبلغه أنت. لكن إذا تلطف وجاء فإنّه لشرف لي أن أستضيفه."

أعتقد أنّ الضابط لم يكن ينتظر مثل هذه الإجابة. لقد اندهش كثيرًا. ثم طلب الإذن وغادر.

قال أستاذي، الذي كنتُ أنظر إليه بحيرة،: "يا مُصعب، إنّ العالِم الحقيقي لا يذهب إلى أبواب السلاطين. إذا ذهب فإنه لا يمكن أن يقول الحقيقة. وإذا قال فإنّه لا يتأثر بها."

كان الأمير حقًّا شخصًا مُتواضعًا لدرجة أنّه أرسل خبرًا بعد فترة. فلقد بلغنا الرسول قائلًا: "أميرنا سيزوركم بعد صلاة المغرب"، ثم ذهب.

بناءً على هذا بدأتُ بالتجهيزات. كما أعدت السيدة جولفيدان المُكسرات والحلوى والمشروبات. وقمنا بتنظيف المنزل جيدًا.

جاء الأمير بعد صلاة المغرب. اعتقدتُ أنّه سيكون هناك جنود حوله، لكن هذا لم يحدث. لقد كان بجواره مساعده فقط.

كلاهما كانا مُتنكرين، كانا يرتديان مثل عامة الناس. كان هذا الاختيار تواضعًا من

ناحيةٍ وذكاءً وتعقلًا من ناحيةٍ أخرى.

رحبنا بضيوفنا في الغرفة. كان الأمير شابًا وسيمًا ومؤدبًا. لقد قرأ اللفافة التي أرسلناها إلى والده؛ فاندهش وأراد مقابلة الكاتب. كما قال والده السلطان كلماتٍ طيبةٍ عن أستاذي.

قال: "يا سيدي، لقد دعوتك ولم تأتِ. كنتُ حزينًا قليلًا في البداية. لكن عندما فكّرتُ تفكيرًا عميقًا، فهمتُ الحكمة من رفضك. فزاد احترامي وحبي لك. إنّه لشرفٌ عظيمٌ لي أن أتعرف عليك وأن أكون في حضرتك."

"حاش لله! فليُعطك ربي عمرًا مباركًا أنتَ ووالدكَ! وليوفقكما في تدابيركما وحُكمكما!"

"للأسف في يومنا هذا يستخدم معظم العلماء علمهم كوسيلة للثروة والشهرة والجاه. إنهم يتملقون أصحاب السلطة ولا يقولون الحقيقة. لا يوجد سوى عالِم واحد حقيقي بين ألف عالِم. لقد توصلتُ إلى نتيجة مفادها أنك من هؤلاء العلماء. إذا قبلتَ، فأنا أريد أن أستفيد من علمك وحكمتك."

كان لأستاذي مبدأ يُسمّى }الخطاب حسب المُخاطب{. هكذا كان يصف علم البلاغة. وهذا يعني أن التحدث يكون وفقًا للرجل الآخر. فبدأ في اتباع هذه الطريقة في حديثه مع الأمير.

"يا أميري، لا أعرف مدى ملاءمة حالي لوصفك. لكن مادمتَ أتيتَ بحسن الظن، فلا يمكنني أن أخيب ظنك. أولًا، سأخبرك برأيي في أهل العلم، ثم أروي لك قصصًا مليئة بالعبرة عن السلاطين والأمراء والوزراء والمحاربين والعلماء والدراويش وأهلهم. هذا هو أسلوبي، أعطي دواء النصيحة المُر بإضافته إلى عسل القصة الحلو."

"يا للجمال! سيكون هذا أكثر تأثيرًا وسيبقى في الذاكرة. تفضل، أنا أستمع إليك."

"من وجهة نظري، الجاهل المحروم من العلم خيرٌ من العالِم الذي لا يجتنب المعصية. كلاهما سقطا في الوحل، لكن الجاهل سقط لأنّه لا يستطيع الرؤية، أما العالِم فإنه يرى بوضوح. ومن يستخدم علمه وعمله في سبيل المال فمثله كمثل

المفلس الذي يجمع محاصيله ويحرقها."

"كنتُ أفكر بالطريقة نفسها. لقد أوضحتَ الحقيقة بإيجاز."

"أولًا، دعني أخبرك قصةً قصيرة ..."

"تفضل."

"رأى أحد العباد الصالحين في منامه سلطانًا في الجنة ودرويشًا في جهنم. أخبر حلمه لحكيمٍ ذي قلبٍ يقظ. فسأله قائلًا: [ماذا يمكن أن يكون السبب وراء وصول السلطان إلى مرتبة عالية والدرويش ينحدر إلى هذا الحد؟]. أجابه الحكيم قائلًا: [كان السلطان مُغرمًا بالدراويش لهذا ارتفع مكانًا عاليًا. أما الدرويش فحاول إرضاء السلطان لهذا تذلل.].

نعم السلطان الذي يطرق باب العَالِم ويسأل عن حاله! وبئس العالم الذي ينتظر الإحسان والهبة عند باب السلطان! ليس من الضروري أن تزهد في الدنيا وتسقط في الفقر لتكون عبدًا حقيقيًا. فالعبد المخلص يكون مع الحق بين الناس. ولا يصبح المرء درويشًا بارتداء ملابس الفقراء. فليكن صاحب أدبٍ وخلقٍ وتقوى حتى ولو ارتدى ثيابًا من أفضل الأقمشة!"

لا تسحق الضعيف حتى لا يسحقك شخص أقوى منك.

روى أستاذي بعض ذكرياته في هذا السياق. وجميعهم كانوا مثيرين للفضول. سأكتب ما أتذكره منهم.

ذات مرة ذهبتُ إلى دمشق واعتكفتُ في مسجد. كان هناك ضريح في الساحة. قيل إنّه لأحد الأنبياء القدماء.

جاء ملك سافك للدماء ظالم غدّار لزيارة الضريح. أدى الصلاة وخشع وتضرع. ثم نظر إليّ.

قال: "أنت درويش. ودعاء الدراويش مُستجاب. ادع لي. سأقاتل عدوًا ذا بأسٍ وأشعر بالقلق."

عندئذٍ اغتنمتُ الفرصة وقررتُ أن أقول كل ما في قلبي.

"إذا كنتَ تريد ألا ترى المشقة في محاربة العدو القوي فارحم الضعفاء. فمن لا يرحم من هم تحت سلطته سيُقهر ممن هم أعلى منه. وليس من الشجاعة كسر ذراع رجل عاجز ببراثنك الفتاكة. فمن لا يرحم العاجزين ستكون نهايته سيئة. لأنّه إذا سقط، لن يلتقطه أحد. وإنّ من يزرع بذرة الشر ويريد أن يحصد حصاد الخير فإنّه يعيش في وهم سخيف.

اسمع مطالب الشعب. كُن عادلًا معهم. إنكم متساوون من حيث كونكم بشرًا. فالجميع خُلق من الأرض. الناس مثل أعضاء الجسم. إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء. لذا الشخص الذي لا يتأثر بكرب الآخر لا يُسمّى إنسانًا. فكّر في أن هناك حسابًا ينتظرنا، وهناك محشر، وهناك ميزان، وسوف تُحاسب عما فعلته مثل أي شخص آخر."

ثم رويتْ له محادثةً بين الحجاج المشهور بظلمه وأحد الدراويش:

كان هناك درويش مستجاب الدعاء في بغداد. شعر الحجاج بالفضول نحو الدرويش، فأرسل رجاله. وجدوه وأحضروه وقام بالمثول أمامه.

قال الحجاج: "أيها الدرويش! يُقال إنّ دعاءك مُستجاب. فادع لي بالخير."

عندئذٍ رفع الدرويش يديه ودعا قائلًا: "يا ربي، إقبض روح عبدك الحجاج."

سأل الحجاج بشيء من الفضول والحدة قائلًا: "أيها الدرويش، ما هذا الدعاء؟"

فأجابه الدرويش: "هذا دعاءٌ بالخير من أجلك ومن أجل جميع المسلمين."

"كيف؟"

"إذا متَ سينتهي ظلمك، ولن تقع في المزيد من الذنوب. والخلق أيضًا سيُنقذون من ظلمك. ها هما الخيران."

صمت الحجاج فترةً ثم سأل بعد تفكيرٍ قائلًا: "أي الأعمال أفضل في رأيك؟"

قال الدرويش: "الأمر يختلف حسب الشخص."

"إذن أخبرني ما هو الأفضل بالنسبة لي."

"أفضل عمل بالنسبة لك هو النوم. لأنك كلما نمت، فلن تؤذي الناس."

سأل الأمير وهو يستمع إلى هذه القصص بدهشة: "هذه كلمات ثقيلة للغاية. ألم يُلحق الحجاج الضرر بذلك الشخص؟"

"لا. فالحجاج مشهور أيضًا بالتخمين واتخاذ القرارات الصعبة. ربما كان يعرف نوعية الشخص الذي أمامه. يعرف بعض الناس أنهم مذنبون، لكن على الرغم من أنهم يعرفون ذلك، إلا أنه لا يمكنهم إجبار أرواحهم على الإصغاء، فهم يخضعون لشهواتهم."

استمرت محادثة أستاذي على هذا المنوال حتى منتصف الليل. كان الأمير يستمع باهتمام. وأخيرًا طلب الإذن. وذهب مع مساعده.

أبناؤكم هم مرآتكم، كيفما كنتم ينعكس عليهم.

كان أستاذي بارعًا جدًا في أمور تربية المرء. وكان يُعطي أهمية كبيرة للتربية خاصةً في سنوات الطفولة. فكان يقول هذا لمن يأتون ويسألون عن كيفية تربية أولادهم:

"اهتموا بتربية أنفسكم. فأبناؤكم هم مرآتكم، كيفما كنتم ينعكس عليهم. إذا كنتم تريدون أن يكون أبناؤكم أصحاب أخلاق حميدة ويتجنبون المعاصي، وإذا كنتم تريدون أن يكونوا أناسًا يعيشون للخير دائمًا، فعليكم أن تكونوا كذلك. فالصفات الحسنة والمشاعر الطيبة لا تُكتسب بالنصيحة، يُمكنكم أن تعيشوا وهي ستغرز في أرواحهم."

ذات يوم عندما كنا بمفردنا، سألتُ عن هذا الأمر. فأجاب على سؤالي بقصة.

استقر بعض اللصوص فوق جبل وبدأوا في العمل كقُطاع طرق. كانوا يقطعون طريق القوافل وينهبون ممتلكات الناس ويقتلون من يُعارضونهم.

أرسلت الحكومة جنودًا مراتٍ عِدّة، لكن دون جدوى. كان مكانهم عاليًا جدًا. وكان مُحاطًا بمكان كثير الصخور ووعر. كانوا يأوون لمكانٍ مثل القلعة. كما اعتاد اللصوص التنبؤ بالجنود القادمين، واتخاذ الاحتياطات اللازمة وإلحاق الهزيمة بهم.

تقدّم ضابط شاب من ذوي المهارة العالية في علم الحرب للمثول أمام السلطان وبعد أن أظهر الاحترام والتعظيم اللازم، قال:

"يا حضرة السلطان، لم يعد الناس يتمكنون من السفر بسبب مضايقات هؤلاء الرجال. يجب القضاء على هذه البلاء مهما كلّف الأمر. هم قليلون في العدد الآن، لكنهم آخذون في الازدياد تدريجيًا. إذا لم يتم اتخاذ الاحتياطات، قد يتعرض عرشك للخطر في المستقبل. من السهل إزالة فسيلة نشأت جذورها حديثًا، ولكن إذا نَمَت الفسيلة وأصبحت شجرة، فلا أحد يستطيع اقتلاعها."

سأل السلطان قائلًا: "ما الواجب فعله؟"

"كلفني بهذه المهمة. وضع الجنود تحت إمرتي. وأنا سأتدبر أمرهم."

كان السلطان أيضًا على علم بهذا البلاء. ولم يكن هناك سبب لعدم تفويض هذا الضابط الشجاع والمقدام.

فقال: "حسنًا، اختر من تشاء من جنودي وافعل كل ما يتطلبه الأمر. وإذا كنتَ بحاجة إلى شيء ولا يمكنك الحصول عليه، قُم بإبلاغي بذلك."

بناءً على ذلك، بدأ الضابط بالاستعداد. لقد اختار جنودًا أذكياء وشجعانًا ومُضحيين وأعطاهم التعليمات اللازمة.

كما شكّل فريق استخبارات وأرسلهم إلى أماكن قريبة من الجبل للمراقبة. وقد تنكروا بملابس مثل سكان المنطقة.

لقد تحروا بدقةٍ عن موعد مغادرة اللصوص القلعة والمدة التي استغرقوها للعودة.

ذات يوم، جاء المراقب وأبلغ الضابط أنّ اللصوص قد غادروا القلعة للنهب والسرقة، ولم يبق سوى عدد قليل من اللصوص.

قاد الضابط جنوده إلى القلعة ليلًا. وتسللوا إلى الداخل مثل الظل. وبعد اشتباك قصير، أسروا اللصوص الموجودين في القلعة وبدأوا في انتظار الآخرين.

ثم جاء اللصوص الآخرون في الليل. فأمسك بهم الجنود المختبئون أيضًا، وأحضروهم جميعًا إلى القصر.

أقيمت المحكمة بحضور السلطان. حيث حكم القاضي عليهم جميعًا بالإعدام. وبدأ الجلاد بتنفيذ الحكم.

وكان من بين اللصوص طفل. لم يكن الشعر قد نَبَتَ في وجهه بعد. ولما رأى الوزير هذا جاء إلى حضرة السلطان وطلب الرحمة للطفل.

قال: "هذا الصبي لم يجني ثمارًا من شجرة الحياة بعد. لقد سقط بينهم بطريقةٍ ما. من فضلك لا تقتله."

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يُعجب السلطان هذا الطلب وعبس وجهه.

قال: "يا وزيري! إنك تستخدم رحمتك في المكان الخاطئ. فليس من عمل الرجل الحكيم أن يُخمد النار ويترك جمرها أو أن يقتل الأفعى ويطلق صغارها."

عندها قام أحد المُربّين بإيضاح الفكرة على النحو التالي:

"لا يمكن لشخص فاسد أن يكتسب التربية من الصالحين. فمحاولة تربية شخص ليس لديه قابلية مثل إيقاف حبة الجوز على قبة. حتى لو أمطرت السماء ماء الحياة، فإنّ شجرة الصفصاف لن تُثمر. والسنبلة لا تنمو في التربة القاحلة. والكلب حتى لو تحمم سبع مرات، فإنه شرعًا لا يزال نجسًا، ولن يصبح طاهرًا."

لكن الوزير، الذي استمع إلى هذه الكلمات، لم يقتنع، والتفت إلى السلطان وقال:

"يا سلطاني، إنّ كلامك وتصورات هذا الشخص في غاية الصواب لمن بلغوا سن الرشد. لكن هذا الطفل صغير جدًا. وخصال السيئين لا تنتقل إليه. يمكن أن يكون شخصًا صالحًا إذا تعايش مع أشخاص صالحين. كما يقول سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم- : }ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه...{. إنّ زوجة النبي لوط وابن النبي نوح كانا صديقين للسيئين، فحُرِما من نور الإيمان. لكن كلب أصحاب الكهف كان مع أهل الخير لفترة فنال الشرف."

قال السلطان: "يا وزيري! لا أجد طلبك صائبًا على الإطلاق، لكن مادمت مُصِرًا فقد عفوت عنه لأجلك."

فرح الوزير بهذا القرار وأخذ الطفل الذي يُدعى "بيرتيف" وأحضره إلى منزله.

استأجر مدرسين خاصين لتربيته. وعلّمه كيف يتصرف في أي مكان وماذا يفعل في حضور السلطان. في الواقع، نشأ الولد جيدًا للغاية. حيث رأى الجميع تقدمه وقدّروه.

وذات يوم حضر الوزير أمام السلطان. وتحدّث عن أدب بيرتيف وبراعته. قال: "لقد تأثر بتربية الصالحين. فذهب جهله القديم، وحل محله العلم والأدب."

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فابتسم السلطان وقال: "حتى لو كبر شبل الذئب بين الناس، فسيظل ذئبًا في النهاية."

مرت سنتان أخريان على هذا الحديث. وكبر بيرتيف وأصبح مُراهقًا قويًا. اقترب منه بعض شباب الحي الأشقياء وأصبحوا أصدقاء. فتأثر بيرتيف بهم وفَقَدَ عقله.

لقد قتل الوزير وسائر أفراد الأسرة ذات ليلة، وأخذ الأموال والأشياء الثمينة الموجودة في المنزل، وذهب إلى الجبل، وأصبح لصًا شرسًا.

عندما سمع السلطان الأخبار السيئة، عض يديه بغضب. وقال لنفسه: "لا يمكن صُنع سيف جيد من حديد رديء. لقد أوضحت هذه الحادثة أيضًا أنّ الشخص الذي تتدنى طباعه لا يمكن أن يصبح رجلًا ذا خُلق. في الواقع، المطر المتساقط واحد لكن كل شجرة تنمو وفقًا لفطرتها. بعضها يصبح شجرة زقوم، والبعض الآخر نخلة مثمرة. إنّ الإنسان عزيز، أما الكلب فهو ذليل. لكن الكلب المُنصف خيرٌ من رجلٍ لا يُقدّر النعمة. فالكلب لن ينسى لقمة أطعمته إياها حتى لو رجمته مائة مرة. أما الإنسان الخسيس فإنّه سيبدأ شجارًا معك بسبب أمر تافه لم يعجبه حتى لو دللته مدى الحياة. من يُسيء فهم عبارة "فعل الخير للجميع جميل" ويضع مرهمًا على جرح الظالم الذي يؤذي الخلق، فهو يدعم الظلم."

فكّرتُ كثيرًا بعد سماع القصة. لقد كان جزء مني يرى السلطان على حق، أما الجزء الآخر مني فقد كان مُعترضًا.

ما مدى صحة وضع حدود حاسمة؟ فهل كان دائمًا ينبع الخير من الخير وينبع الشر من الشر؟ إذا كان الأمر كذلك، أليس هذا غير عادل للطفل المولود لأبوين سيئين؟

وهكذا استولت هذه الأسئلة على عقلي. وعندما لم أستطع الخروج من هذا الأمر، فتحتُ الموضوع مع أستاذي.

بعد الاستماع إليّ قال: "يا بُني، من الجيد أن تفكر في الكلمات المنطوقة، وتتساءل عن حقيقة الأمر، وتطرح الأسئلة عند الضرورة. لأنّ السؤال هو مفتاح العلم. لقد سألوا

حضرة الإمام الغزالي: [كيف وصلت إلى هذه الدرجة في العلم؟]. فقال: [كنتُ لا أخجل من أن أسأل عما لا أعرفه]. وأنت أيضًا لا تخجل من طرح الأسئلة.

أما بخصوص سؤالك }هل الخير ينبع من الخير والشر ينبع من الشر؟{، فإنّه من الممكن أن يكون لكل قاعدة استثناء. لكن الحكم يصدر وفقًا للأغلبية. فلا يستحيل خروج العالِم عن الكمال ولا خروج الكمال من العالِم. لأنّ هذا هو الواقع. لكن هذه استثناءات. ولا تجعل الاستثناءات الحكم خاطئًا بحسب الأغلبية."

فكّرتُ في هذه الكلمات الموجزة لاحقًا. لا أستطيع القول بأنني أفهمها كليًا.

لكنني توصلتُ إلى هذه القناعة: إذا كان الموضوع خاص بالبشر، فمن الضروري عدم التسرع أثناء إصدار الحكم والتفكير مليًا مع أخذ كل الاحتمالات بعين الاعتبار.

فالله يُولج الليل في النهار ويُولج النهار في الليل، ويُخرج الحي من الميت ويُخرج الميت من الحي. فإذا شاء لخَلَقَ الأشرار من الأخيار وخَلَقَ الأخيار من الأشرار. لأنّه الخالق.

لكن هذه ليست قاعدة مُطلقة، بل استثناء يُعبّر عن قُدرته اللانهائية.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

إذا ترددت في اتخاذ قرار بشأن أمر ما، فاختر الأقل ضررًا.

كان الأمير مختفيًا منذ فترة طويلة. كنتُ أتساءل لماذا لا يأتِ. ذات صباح جاء مساعده وقال إنّ الأمير سيشرف بعد المغرب. وقدّم بعض المعلومات أيضًا.

اتضح أنّ نيران الفتنة اندلعت في بعض أنحاء البلاد. حيث قُتِلَ رجال الدولة على يد قتلة متخفيين. وأمسك الباطنية، الذين يعملون خلف الستار، بزمام الأمور، وأشاعوا الفساد.

من هم هؤلاء الباطنية؟ ولماذا يشيعون الفتنة والفساد ويقتلون الناس؟ وما القضية التي يؤيدونها؟

قررتُ أن أسأل أستاذي هذه الأسئلة. لكنني لم أجد الفرصة.

بعد صلاة العشاء جاء الأمير ومساعده. وكانا يرتديان ملابس تنكر مرةً أخرى. جلسا في غرفة الضيوف. ووضعتُ أمامهما أطباقًا من الزبيب والجوز والتمر بنية الضيافة.

قال أستاذي مُخاطبًا الأمير: "منذ وقتٍ طويلٍ وأنت تحارب الباطنية. مبارك عليك الغزوة!"

"شكرًا لك. نعم، لقد استغرق الأمر وقتًا طويلًا. لقد شغلونا كثيرًا. لكن الحمد لله رددنا الحقوق، وقهرنا كل من اعترض طريقنا وأوقعناهم في حالة يُرثى لها. وهدأت الأمور."

كان أستاذي قلقًا. لقد كان يمكنني أن أفهم مشاعره بمجرد النظر إلى وجهه.

قال: "إنهم متخفون. يختفون فترةً ثم يعاودون الظهور. يضعفون لكنهم لا ينقطعون."

"يبدو أنك تعرف طبع هذه الطائفة. كيف حدث هذا، ومن أين علمته؟"

"لقد زرتُ العديد من الأماكن. وتبادلتُ أطراف الحديث مع أشخاص مختلفين. كنتُ بحاجة لمعرفة أولئك الذين أوقعوا رجل دولة استثنائي مثل نظام الملك

شهيدًا. لقد تحريت عن الأمر. كما أتيحت لي الفرصة للقاء بعض الباطنية."

"لقد تحدثوا معك، أليس كذلك؟"

"نعم. لقد وطدوا علاقتهم بي عندما كنت أدرس في المدرسة النظامية. لقد حاولوا جاهدين أن أنضم إليهم. فتظاهرت بأنني أميل للأمر وحاولت الحصول على معلومات."

"أي نوع من الناس هم؟ وما هو الانطباع الذي تركوه فيك؟"

"إنهم ليسوا شجعانًا. وأبرز صفاتهم هي النفاق. إنهم يعملون خلف الستار. لذا فإنه يكاد يكون من المستحيل استئصال جذورهم بالسيف. لقد كتب الإمام الغزالي الشهير كتابًا عنهم بناءً على رغبة وطلب السلطان السلجوقي ودحض فكرتهم. لكن لم يقرأ الجميع هذا الكتاب. فأغلب الناس عوام. أي أنهم ليسوا أهلًا للبحث. ويمكن خداعهم بسهولة."

"حسنًا، ما الحل؟"

"من الواجب اتخاذ تدابير جذرية تخترق الأعماق. كتوعية الشعب على سبيل المثال. وأيضًا تهيئة رجال ذوي قوة في العلم والمعرفة والخطاب وإرسالهم إلى جميع أنحاء البلاد. بالإضافة إلى زج الأشخاص الأذكياء والمدبرين والصادقين إلى داخل طائفة الباطنية. فيحصلون على المعلومات قبل أن يشيعوا الفساد. إنّ هذا يتطلب تشكيل استخباراتي مؤهل. ويجب أن يكون لدى الدولة رجال موثوق بهم في كل مكان. إذا تم أخذ كل هذه الأمور في الاعتبار وتم تطبيقها معًا، فإنهم سيفقدون تأثيرهم حتى لو تعذر القضاء عليهم تمامًا."

كان الأمير يستمع باهتمام لما يُقال ويطرح الأسئلة، وجعل مساعده يكتب نصائح أستاذي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دين الدولة هو العدل.

بعد أن حكي بعض الأحداث التي عاشها، سأل الأمير قائلًا: «من الجميل إعطاء الحق إلى صاحبه، ومن الجميل أيضًا العفو عن المذنب. كيف يجب أن يتخذ صاحب السلطة القرار وعلى أي أساس؟»

لقد أثارت المسألة اهتمامي أيضًا. فبدأت بانتظار جواب أستاذي بفارغ الصبر.

تحدث أستاذي أولًا عن القوانين العمومية. وقام بتعريفها. حيث استهل بكلام سيدنا علي رضي الله عنه: «دين الدولة هو العدل» ووضح المعنى.

«إنّ العدل هو الذي يحمل الدولة، كما يحمل البدن الروح. والعكس هو الظلم. أما الظلم فهو لا يدوم أبدًا. وحقيقة العدل هي في الوقت نفسه أحد عناصر القرآن الأربعة. باختصار، يُوصف بأنّه «إعطاء الحق لصاحبه». وتنقسم الحقوق أيضًا إلى قسمين. حق الله على العباد وحق العباد فيما بينهم. ويجب على رجل الدولة تطبيقهما هما الاثنين. فيجب أن يكون عادلًا وأن يحمي الحقوق.

لهذا، يجب أن يؤسس المحاكم التي تصدر أحكامًا مبنية على الأدلة. ويجب أن يكون حاميًا وحارسًا ومُدافعًا للضعفاء الذين لا يستطيعون أخذ حقوقهم."

"والعفو؟"

"نعم، العفو شيء جميل. وبالطبع يجب أن يعرف الحاكم العفو أيضًا. لكن هذا العفو يجب أن يكون عن جرائم مقترفة في حقه. لكن إذا كان لشخص حق عند غيره، أو اغتصب شخص حق غيره، فلا يكون ولا ينبغي العفو نيابة عن صاحب الحق أو المظلوم. هذا هو المكان الذي تحتاج فيه العدالة. كما أنه لا ينبغي أن يستسلم صاحب السلطة لغضبه عند اتخاذ القرار أو إصدار الحكم. فلا ينبغي أن يأخذ القرارات وهو في حالة غضب. لديّ بعض القصص حول هذا الموضوع، إذا رويتها سيُفهم الموضوع بشكل أفضل."

ذات يوم استسلم سلطانٌ لغضبه وأمر بقتل رجلٍ بريء.

فقال أحد الوزراء، والذي كان صاحب خُلق حسن وكان شاهدًا على الحكم: "يا حضرة السلطان، لا تظلم نفسك بسبب غضبك من هذا الرجل الماثل أمامك."

تساءل السلطان قائلًا: "كيف يمكن هذا، ماذا تريد أن تقول؟"

"لن يستغرق إعدام هذا الرجل سوى دقيقة واحدة، لكن الذنب الذي سيكون على عاتقك سيبقى إلى الأبد. فلا تضع هذا العبء الثقيل على عاتقك."

أثّرت النصيحة على السلطان. وتراجع عن القرار الذي اتخذه بدافع الغضب وعفا عن الرجل.

إنّ الرجل الشجاع ليس الذي يُهاجم أسدًا يزأر، بل إنّ الرجل الشجاع هو الذي يستطيع السيطرة على نفسه رغم كل غضبه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القطة التي تتعرض حياتها للخطر تتشاجر مع الكلب.

كان هناك سلطان يعيش في قديم الزمان، وكان قد استشاط غضبًا وأمر بقتل رجل بريء.

عندئذٍ لفظ الرجل البريء كلماتٍ بذيئة وشتم السلطان كردة فعل بسبب الخوف من الموت. كما يقولون، إنّ المرء الذي انقطع الأمل عن روحه يقول كل ما يخطر على قلبه. فالقطة التي تتعرض حياتها للخطر تتشاجر مع الكلب.

لم يستطع السلطان سماع ما قال الرجل جيدًا، لأنّه كان بعيدًا قليلًا. فسأل: "ماذا يقول هذا الرجل؟"

حينها قال وزير ذو خُلق طيب: "يا حضرة السلطان، هذا الرجل كان يتلو قوله تعالى }الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ{ "آل عمران/134" . فكما تعلم هذه الآية تذكر صفات أهل الجنة."

مع هذه الكلمات مال السلطان إلى الإنصاف وأشفق على الرجل وتراجع عن إراقة دمه.

تدخل وزير آخر لا يُشبه الوزير الأول. فقال: "لا يليق بأناس مثلنا أن يكذبوا في حضرة سلطاننا. يا حضرة السلطان، الحقيقة أنّ هذا الرجل شتمك وقال كلامًا بذيء"

أزعجت كلمات الوزير الثاني السلطان. وقال: "لقد نالت كذبة الوزير الأول إعجابي أكثر من صراحتك، لأنّ كلماته كانت من أجل الخير، أما كلماتك كانت للشر."

لقد قُصت هذه القصة نظرًا لاستحسان الأمير الذي كان يستمع لها. كما أراد من أستاذي أن يحكي قصصًا أخرى. لذا حكي أستاذي قصةً أخرى.

اقترف رجلٌ كان يخدم السلطان لسنوات جريمةً هينةً، ثم هرب من القصر خوفًا من العقاب. فطارده الجنود وأمسكوا به وأحضروه أمام السلطان.

وكان أحد الوزراء يكن الحقد لهذا الرجل. فانتهز الفرصة. حيث قال: "يا حضرة

السلطان، اعدم هذا الرجل. لكي يأخذ الخدم الآخرون العبرة وبهذا لن يجرؤوا على فعل مثل هذا الشيء."

فقال الخادم بعد إبداء الاحترام والتعظيم للسلطان: "يا حضرة السلطان، أنت ولي نعمتي. وأيًا كان ما تُقرّره، فأنا أرضى به. لكني لا أريدك أن تعاني بسببي يوم الحشر."

"هل تدّعي براءتك عندما ظهر كل شيء عيانًا بيانًا؟"

"لا، أنا أعترف بجريمتي. لكن هذه الجريمة ليست من النوع الذي يستدعي الإعدام. فإذا كنت ستقتلني، فأنت بحاجة إلى عذر شرعي."

تساءل السلطان: "أي عذر؟"

"اسمح لي أن أقتل ذلك الوزير الذي يريد إعدامي، ثم طبّق قانون القصاص واعدمني. وهكذا يكون هذا عذرك يوم الحشر."

ضحك السلطان على هذا الكلام وسأل الوزير قائلًا: "ما رأيك؟"

عندها قال الوزير: "يا حضرة السلطان، اعف عن هذا الرجل من أجل حُرمة ذكرى والدك المتوفى. الذنبُ ذنبي. لقد تجاوزتُ حدودي."

أكلت الأرض العديد من أمثالك.

كان أستاذي يُعطي دروسًا مهمة للأمير بأسلوبه السردي، وأنا أيضًا كنتُ أستفيد منه. في الجزء التالي من المحادثة، روى قصصًا وقال كلمات مليئة بالعبرة والحكمة.

وبسماع هذه القصص والحكم، طرح الأمير سؤالًا مهمًا حول الرزق والثراء.

قال: "بعض الناس فقراء والبعض الآخر أغنياء. يسبح البعض في الثروة، والبعض الآخر يجدون صعوبة في العثور على خبزٍ للأكل. كيف يُقسم الله الرزق؟ ومن الذين يجعل الله لهم نصيبًا من الثروة؟"

أجاب أستاذي على هذا السؤال بسرد قصة مُحفّلة بالعبرة وروح الدعابة.

فتح السلطان العباسي المشهور هارون الرشيد مصر. كان يغضب على المصريين منذ القدم ويقول: "لماذا لم يؤمنوا بموسى وأصبحوا عبيدًا لفرعون"

فأراد أن يعاقبهم وقرّر تعيين أكثر الرجال غباءً وبلاهةً واليًا عليهم. وبعد البحث فترةً طويلة، عثر مسئولو القصر على رجلٍ اسمه خُسيب وأحضروه. فعيّنه هارون الرشيد واليًا.

يعطون المثال التالي لتوضيح درجة غباء هذا الرجل:

كان المزارعون المصريون في وضع صعب. فجاءوا أمام الوالي لعرض حالهم وطلب المساعدة.

قالوا: "زرعنا القطن في حقولنا، ثم جاء المطر في غير أوانه ودمّر القطن الذي لدينا."

عندئذٍ قال خُسيب: "لم يكن من الصواب أن تزرعوا القطن، كان عليكم أن تزرعوا الصوف."

قال عالِم سمع بهذه الواقعة: "لو كانت الثروة بالعلم، لما كان هناك أفقر من الجاهل. إلا أنّ الله يرزق الجهلة لدرجة يتعجب منها العلماء."

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هكذا مات كثير من العلماء والقضاة في مشقة، ووجد كثير من الحمقى كنزًا في الأطلال وعاشوا في رفاهية.

انظر، إنّ الشجرة عديمة العقل تحصل على رزقها حيث تقف، والثعلب الذكي يركض هنا وهناك صباحًا ومساءً من أجل الرزق.

فالله الذي يختبر الناس يعطي البعض العقل والذكاء والعلم والبعض الآخر المال والثروة. وكل نعمة مُعطاة وغير مُعطاة هي سؤال الامتحان. هناك العديد من الحكم في اختيارات الإرادة الإلهية.

بعد الاستماع إلى قصة حُسيب، شعرتُ بالرغبة في الضحك بصوتٍ عالٍ، وبالكاد استطعت السيطرة على نفسي. ثم وجدتُ أنّه لا يمكنني التّحمُّل أكثر، فاختلقتُ عذرًا وخرجت.

عندما هدأتُ قليلًا، عدتُ إلى الغرفة. كان أستاذي يحكي للأمير قصة شقيقين.

في قديم الزمان كان هناك شقيقين. أحدهما غني والآخر فقير. كان الغني يعمل في القصر حيث يخدم السلطان. أما الفقير فكان يكسب رزقه من عرق جبينه.

ذات يوم قال الأخ الغني للأخ الفقير: "لماذا لا تخدم السلطان وتتخلص من الفقر؟"

فأجابه الأخ الفقير: "ولماذا لا تكسب رزقك بعرق جبينك وتتخلص من الوقوف واضعًا يدك على صدرك أمام السلطان؟"

إنّ العيش بأكل الخبز الجاف عند الضرورة أفضل من تقييد اليدين أمام الخلائق.

إذا سنحت لك الفرصة فكُن كريمًا مثل نخيل التمر. وإذا لم يكن هناك مجالًا فكُن حرًّا مثل شجرة السرو.

تقضي عمرك النفيس مع فكرتين وقلق. ماذا عليّ أن آكل في الصيف وماذا عليّ أن ألبس في الشتاء؟ مع أنّ الطعام من أجل العيش، وليس العيش من أجل الطعام.

إذا كان الغرض هو الأكل والشرب واستمرار النسل، فإنّ الحيوانات تفعل ذلك بشكل أفضل.

إنّ الإيمان هو ما يجعل الإنسان إنسانًا، يعرف ربه، ويحبه، ويرضيه. بالعمل الصالح.

تكمن قيمة هذه الدنيا الفانية وأهميتها في كونها حقلاً للآخرة. تزرع هنا، وتحصد هناك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نوم الصباح الحلو يضل المرء.

كنتُ مرتاحًا أثناء بقائي في منزل والدي. حيث لم يكن عليّ العمل. تقريبًا كنتُ أعيش حياة أمير. فكانت خادمتنا تقوم بأعمال المنزل، والبستاني يهتم بحديقتنا، والراعي يرعى حيواناتنا. لكن في منزل أستاذي، كنتُ أقوم بكل الأعمال. لقد عانيتُ في البداية. لكنني ثابرتُ، وعوّدتُ نفسي على هذا.

مُقابل هذا العناء، كان بإمكاني أن أكون قريبًا من أستاذي وأستفيد منه. وقد كان أستاذي في غاية اللطف والرحمة معي.

أحيانًا أرتكب أخطاءً أيضًا. فكان لا يُعيب هذه الأخطاء في وجهي على الفور، ولكن عندما يحين وقتها كان يُنير بصيرتي بسرد قصة أو بإعطاء مثال عن الآخرين، ويُخبرني بما يجب عليّ فعله.

في بعض الأحيان كنتُ أتدلل ، وأتجاوز حدودي. العديد من المشاعر والرغبات التي لم أستطع تسميتها كانت تغلي بداخلي.

لقد أردتُ أن أكون حرًا، وأن أتصرف كما يحلو لي، وأن أفعل ما أريد مثل بعض أقراني.

وذات يوم لم أستطع التّحمّل وقلتُ:

"إنني أعيش في كوخ منذ فترة طويلة. لقد سئمتُ من أعمال البستان وإطعام الحيوانات وتقطيع الحطب والتسوق. ومقابل هذا، لا يمكنني رؤيتك إلا مدة ساعة أو ساعتين في اليوم."

عندئذٍ قال:

"يا بُني، كل شيءٍ له ثمن. والعلم والحكمة ثمنهما باهظ. يتم هذا العمل برغبة وطلب شديدين. إنّه طريق طويل وضيّق وشاق. لكن ثمرته أيضًا ذات قيمة بهذا القدر. لكن الأمر يتطلب الكثير من الصبر. فإذا كنتَ لن تستطيع إظهار هذا الصبر، فلا يمكنني إبقاءك هنا بالقوة، يمكنك العودة إلى المنزل وقتما تشاء."

شعرتُ بالخجل مما قلته. وأخذتُ أتوسل إليه. فقلتُ: "سامحني يا سيدي، لقد كنتُ جاهلًا، وتجاوزتُ حدودي."

قال: "أنت ما زلتَ صغيرًا جدًا. لقد تحدثتَ بصراحة عما كان يدور في ذهنك. لا تقلق، واصبر، فكل ما لدي سيكون لك."، ثم قال بطريقةٍ لطيفة: "عدا واحدًا."

"ما هو يا أستاذي؟"

بدلًا من الإجابة على سؤالي، قُصَّ عليَّ قصةً وطلب مني إيجاد الجواب.

كان هناك مصارع مشهور. كان يهزم كل من يواجهه. لقد انتشر اسمه في كل مكان. حتى وصلت شهرته إلى آذان السلطان الذي كان مهتمًا بالشهرة والمُصارعة.

هذا المصارع كان لديه أيضًا طلاب. لقد أحبهم جميعًا وعلمهم ما يعرفه، لكنه كان يُحب أحد طلابه بدرجة أكبر ويهتم به بشكل خاص.

لقد علَّم ذلك الشاب البارع بالفعل ثلاثمائة وتسعة وخمسين لعبة مصارعة من أصل ثلاثمائة وستين لعبة مصارعة، ولم يُعلِّمه لعبة واحدة.

أصبح الشاب مصارعًا ذائع الصيت بمرور الوقت. وكان يُستقبل بإعجاب أينما ذهب. هذا الشاب، الذي كان جسده قويًا ولكن روحه نيئة، أخذه الكبر والغرور.

فبدأ يقول: "من الآن فصاعدًا لا أحد يستطيع مواجهتي. لا يوجد مصارع أفضل مني في هذا البلد. يمكنني حتى هزيمة مُعلمي."

سمع السلطان أيضًا بهذا التحدي. فقام بتنظيم مسابقة لمعرفة النتيجة.

قام المصارع الشاب، بعد هزيمة كل المصارعين الذين واجهوه، بالوقوف أمام السلطان للمطالبة بالمكافأة.

فأعطاه السلطان كيسًا من الذهب، وكان ذلك إحسانًا عظيمًا. ثم سأله قائلًا، "أنت تقول يُمكنني هزيمة حتى مُعلمي، أليس كذلك؟"

قال الشاب: "نعم يا سلطاني. لقد انتهى عهد مُعلمي. الساحة الآن ملكي."

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حينها أخرجوا المعلم الذي كان ينتظر في مكان ما في القصر.

استغرقت مصارعة المعلم والشاب مدة قصيرة جدًا. حيث أسقط المعلم الشاب أرضًا بلعبة غير مسبوقة. اندهش الشاب بهذا الموقف لدرجة أنه لم يفكر حتى في النهوض من الأرض.

قال: "يا معلمي، ما هذه اللعبة؟"

قال المصارع: "كنتُ أعلم أنك ستتحداني ذات يوم. لهذا السبب احتفظت لنفسي بواحدة من ثلاثمائة وستين لعبة. لأهزمك بها."

هذه الحادثة ذكّرتني بكلمات أحد أهل الحكمة: "لا يوجد أي أحد يتعلم مني رمي السهام حتى لا يُصوّب سهمه نحوي في النهاية."

هذه القصة ملأت قلبي بالحزن. وإسوَدَّ وجهي. وقد فهم أستاذي حالتي. فقال ليواسيني:

"نحن لسنا مصارعين ولا رماة. عملهم مع الأجساد، وعملنا مع الأنفس. إنّ أبسط معلومة لدي ستكون لك. فلا داعي لأخفي العلم والحكمة. وبعد أن أغادر هذه الدنيا، ستفعل مثلي وستُعلّم الآخرين كل ما تعرفه. هكذا ينتشر العلم والحكمة ويزدادان. فلا الضوء ولا الجمال يتضاءلان بالمشاركة، بل على العكس يزدادان. لكن كُن حذرًا عند اختيار الطالب. لا تقترب من الأشخاص الذين سيضحون بدينهم من أجل دنياهم وبعلمهم من أجل مكانتهم."

"حسنًا يا أستاذي."

"هناك سبب مهم يجعلني لا أريد أن أكون معك بشكل دائم. وأيضًا أفكر في الاستفادة منك. وهو أنك إذا كنتُ تراني معك طوال الوقت، فسيبدأ داء الألفة عندك وسيقل اشتياقك."

"كيف؟"

"فكّر في الهواء. دائمًا معنا. حتى أننا نعيش فيه. لهذا السبب لا نُفكّر كم هو نعمة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كبيرة ولا نستطيع أن ندركها. انظر إلى الوضع من وجهة النظر هذه. إنني أضع الوقت والمسافة للفراق حتى لا تُصابَ بمرض الألفة. هل فهمت الآن؟"

"فهمتُ وبشكل جيد جدًا أيضًا يا أستاذي. هذا مبدأ أساسي يجب مراعاته بين المعلم والطالب."

"جيد ... لنحضر أدوات الكتابة الآن ونكتب ما نتحدث عنه بشكلٍ جميل."

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من يُقاتل الأقوياء يؤذي نفسه كما يكسر رأسه من ينطح الصخر.

طالت قامتي ونما جسدي. كنتُ أريد أن أكون صاحب مهارة قتالية إلى جانب التقدُّم في العلم والحكمة.

تحدثت إلى أستاذي أولًا ثم إلى والدي، وشرحت نيتي، وحصلت على إذن منهما لتعلُّم القتال.

استأجر لي والدي محاربًا معروفًا بمهاراته القتالية كمُعلم. كنا نتدرب لساعاتٍ يوميًا.

كان معلمي يعلمني كيفية رمي السهام، واستخدام السيوف، والقتال على ظهر الخيل، باختصار كان يعلمني كل ما يجب تواجده في المحارب. زادت هذه التطورات من شجاعتي. وبدأتُ أفكر في أنني أستطيع أن أفعل ما أريد الآن.

لقد جاء الربيع وتزيّنت الأنحاء بالزهور. كانت هناك حركة لا تُوصف في قلبي. وكان دمي يغلي. لم أستطع الوقوف ساكنًا. وبَدتْ شيراز ضيقة بالنسبة لي.

لقد ملأتني الرغبة في السفر لمسافات طويلة، ورؤية أماكن جديدة، ومقابلة أشخاص مختلفين، وعيش مغامرات مثيرة ومفيدة.

ذات يوم قلتُ رغبتي هذه لأستاذي. كان يستمع لي بهدوء ثم أخبرني عن مغامرة شابٍ ما.

كان هناك شاب قوي العضد. وكانت أموره تسير بشكل مُعاكس. وقد أفقد الفقر صبره. وأصبح الأمر غير محتمل. فقرر السفر والبحث عن رزقه في بلدان أخرى. وأوضح نيته لوالده.

Telegram:@mbooks90

قال: "أريد أن أغادر من هنا. أنا رجل ذو بأس وقوة. وأستطيع أن أفعل ما أريد بقوة زَندي. سأكسب الثروة، وأتخلص من هذا الضيق. ما فائدة المهارة غير المستخدمة؟ سوف تضيع هباءً."

لم يكن والده يريده أن يذهب. وقال له: "بُني، ما زلتَ صغيرًا. اِخرج هذا الحلم من

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

رأسك. وارضى بحالك. فلا أحد يستطيع أن يصل إلى هدفه بقوة عضده. ما يحتاجه المرء ليس قوة الذراع، بل قوة الحظ."

"ولكن هناك فوائد عديدة للسفر. أن يرى المرء أماكن جديدة، ويكتسب الخبرة، ويُكوِّن صداقات، ويكسب المال والثروة. كما يقول أصحاب الحكمة إنك إذا بقيت في المنزل، فلا يمكنك التخلُّص من عدم النضج، ولا يمكنك أن تصبح رجلًا ناضجًا."

"نعم، فوائد السفر كثيرة، لكن للتجار والعلماء والحرفيين. وأنتَ لا تمتلك أيًا من هذه الصفات. قوة عضدك هذه عديمة الفائدة."

قال الشاب: "يا أبي، بالرغم من أنَّ رزق الجميع مكتوب، إلا أنَّه لا أحد قد قرأ المكتوب. لهذا السبب يتعين عليه بذل قُصارى جهده والركض وراء رزقه."

مهما قال والده، سيجد الصبي إجابة ويقولها. وفي النهاية ودَّعا بعضهما البعض وافترقا.

ذهب الشاب إلى جانب الماء. ورأى أنَّ بعض الناس دفعوا المال وركبوا السفينة. وأراد أن يركب هو الآخر. لكنه لا يمتلك المال. فتوسل للبحار حتى يركب السفينة.

كان البحّار رجلًا غير منصف ولا رحيم. فلم يكتفِ بأنه لم يسمح له بالصعود على متن السفينة، بل أهان الشاب الذي كاد يتوسل إليه وهو يقول:

"أرجوك خذني أنا أيضًا".

نظر الشاب والسفينة على وشك التحرُّك وقال:

"أيها البحار، ليس لدي نقود لكن يمكنني إعطاءك السترة التي فوق ظهري."

كان البحار جشعًا في الملابس، فأخذ السترة وأركب الشاب. وبمجرد أن صعد الشاب إلى السفينة، أمسك بلحية البحار وضربه ضربًا مُبرحًا.

استمرت السفينة في طريقها. حتى وصلوا إلى الشاطئ. وكان هناك عمود على الشاطئ من قديم الزمان.

فقال البحار مخاطبًا المسافرين:

"هناك عطل في السفينة، نحتاج إلى إصلاحه. إذا كان بينكم من يثق في قوته، فليسبح إلى الشاطئ، ويربط حبل السفينة بهذا العمود، لنصلح السفينة."

عند سماع ذلك، انخدع الشاب بغرور الشجاعة واندفع إلى الأمام. فربط الحبل بمعصمه وذهب إلى الشاطئ. وشرع في ربطه بالعمود. في الوقت ذاته قطع البحار الحبل وحرّك السفينة.

بقي الشاب هناك لأيام عِدّة. وكان تعيسًا. وجد أنّه لا أحد يأتي، فبدأ بالسير نحو الداخل. في هذه الأثناء، كان يعاني من الجوع والعطش.

أخيرًا، وصل إلى بئر. وكان صاحب البئر يبيع الماء مقابل المال. طلب الشاب الماء فلم يعطه. فقام الشاب بضربه وأخذ الماء بالقوة.

سمع أصدقاء بائع الماء عن الحادث. فهاجموا جميعًا الشاب وضربوه حتى الموت، وتركوه غارقًا في الدماء.

إنّ النمل صغير، لكنه عندما يتحد يسلخ جلد الأسد.

كن راضيا حتى لا تنحني أمام أي شخص.

مشي الشاب لمسافة أكثر، وهو مُصاب. كانت الشمس على وشك الغروب. ثم رأى قافلة. اقترب منهم وحياهم.

اتضح أن القافلة في حالة خوف. وعندما سأل عن السبب، قالوا: "نخشى من مُهاجمة قطاع الطرق."

فقال: "لا يمكنهم فعل أي شيء وأنا معكم. فأنا بمكانة عشرين رجلًا. إلى جانب ذلك، يساعدني المسافرين الشباب، ونجعل اللصوص يتقهقرون."

ابتهج المسافرون في القافلة كثيرًا. وقدّموا له الطعام. وملأ الشاب معدته جيدًا. ثم غط في سباتٍ عميقٍ قائلًا: "أيقظوني إذا حدث هجوم."

كان هناك في القافلة رجل مُحنك عاش من العمر أرذله. قال للمُسافرين في القافلة:

"نحن لا نعرف هذا الشاب. يمكن أن يكون لصًا. كيف تعرفون أنّه لن يسرقنا عندما تُتاح له الفرصة! ربما أدخلنا الأفعى إلى منزلنا. والمقاومة تكون صعبة عندما يكون الخطر في الداخل. إذا أرسل إشارة في الليل واستدعى أصدقاءه، هل سنكون بخير!"

"حسنًا، ماذا علينا أن نفعل؟"

"من الأفضل أن نترك هذا الشاب هنا ونذهب بهدوء."

لقد كان هذا الأمر مناسبًا لهم. فحملوا ممتلكاتهم على الجمال وابتعدوا. وعندما استيقظ الشاب رأى أنّه لا توجد قافلة. وضوء الشمس الحارقة يسطع فوق المرتفعات. نظر حوله فلم ير أحدًا. عندئذٍ تحطم أمله. ثم استلقى وهو يفكر قائلًا: على الأقل لأمت هنا.

في هذه الأثناء كان الأمير يطارد فريسة. وعندما رأى الشاب صرخ قائلًا: "من أنت، وماذا تعمل، ولماذا أنت وحدك هنا؟"

حكي الشاب كل ما حلّ به. ومن خلال النظر إلى حديثه وسلوكه، أدرك الأمير أنّه

كان شخصًا ساذجًا وعديم الخبرة، ولكنه ليس شخصًا سيئًا.

تألم الأمير لحاله. فأخذه إلى القصر وألبسه ثيابًا جديدة. ثم أرسله إلى مسقط رأسه ومعه رجل موثوق به.

عندما رآه والده فرح كثيرًا. وروى الشاب كل ما حدث له.

فقال والده: "لقد قلتُ لك ولم تستمع، ومن لا يستمع إلى نصيحة الأب يلقى جزاءه."

أجاب الشاب: "نعم، هذا بالضبط ما قلته. لكني ما زلتُ لا أندم على ذلك. لقد مررتُ بالكثير من المتاعب، لكنني في المقابل اكتسبتُ الخبرة. فبالرغم من أنني أُصِبتُ بلدغة النحل، إلا أنني أخذتُ عسلهم الثمين. ومن لا يزرع بذورًا في حقله لا يستطيع أن يحصد الزرع."

عندئذٍ قال والده كلماتٍ مؤثرة للغاية: "يا بُني، هذه المرة ابتسم لك الحظ. جاء أمامك رجلٌ صالح وأنقذك من الموت. لكن هذا ليس هو الحال دائمًا. دعني أخبرك قصة وفكّر في معناها.

كان لأحد السلاطين الفرس خاتم في إصبعه بقيمة كنز. قد ذهب إلى مكانٍ يُسمّى مُصلى في شيراز. ووضع الخاتم على قُبة مقبرة على شكل نصف كرة. ثم قال: [اخبر الرُماة المهرة أن يطلقوا السهام. ومن يعبر سهمه من حلقة الخاتم، سيكون الخاتم له.]

تجمّع المئات من رماة السهام المهرة في الميدان وأطلقوا سهامهم. لكن لم يستطيعوا إصابة أي منها. وكان صبي ما يُطلق السهام عشوائيًا، ويُسلي نفسه. بطريقةٍ ما، مر أحد الأسهم التي أطلقها عبر الحلقة. أعطى السلطان الخاتم للصبي بالإضافة إلى الكثير من المال. وعندما أخذ الصبي الذكي الخاتم والمال، أحرق قوسه وجعبته. فسألوه: [لماذا فعلتَ هذا؟]. قال: [أردتُ أن يبقى الشرف الذي اكتسبته. وأن يتذكّرني الناس دائمًا بهذا النجاح.]"

ارسل الزاد الذي ستحتاجه في القبر فلا أحد سيرسله بعدك

بعد الاستماع إلى القصة، طلبتُ الإذن من أستاذي وغادرتُ. وجدتُ شجرةً منعزلة وجلستُ تحتها وفكّرتُ فترةً طويلة.

لقد كانت هناك نقاط صحيحة في كلام الأب والشاب. حيث عبّر الاثنان عن جوانب مختلفة من الحقيقة.

كان هناك الجد والسعي على أحد كفتي الميزان، والحيطة والقناعة على الكف الآخر. وكانوا يكملون بعضهما البعض.

نعم، لم يكن جهد المرء في بعض الأحيان كافيًا. لكن مجرد الجلوس وعدم بذل أي جهد لم يكن هو الحل أيضًا.

لم يكن ليأتي النجاح ما لم يكن الحظ رفيقًا، لكن لا يمكن للمرء أن يعرف مُسبقًا ما إذا كان الحظ سيكون رفيقًا أم لا.

نعم، لقد كُتِبَ القدر. لكننا لم نكن نعرف ما المكتوب بخصوصنا. لهذا السبب كنا نبذل قُصارى جهدنا.

فكّرتُ في العديد من المعاني الأخرى المُشابهة، لكنني لم أستطع التوصل إلى قرار قطعي.

وكلما فكّرتُ أكثر، كلما تعمقتُ في التفكير، وكلما تعمقتُ في التفكير، بذلتُ جهدًا أكبر للخروج. من يدري، ربما كانت أهم ثمار التفكير هو التفكير نفسه.

بهذه التأملات والترددات أتيتُ إلى أستاذي. وأخبرته بما كنتُ أفكر فيه. استمع إليّ بابتسامةٍ حلوة، لكنه لم يقدّم أي تفسير. فعرفتُ هذا بالنظر إلى وجهه: لقد أسعده تفكيري.

بدأتُ أفهم أسلوب أستاذي أكثر قليلًا. فبدلاً من تقديم إجابات جاهزة، أراد أن يجعل الناس يفكرون ويجدونها.

إنّ الآراء التي بَدَتْ وكأنها تتعارض مع بعضها كانت تكمل بعضها البعض أحيانًا.

كان ينبغي أن يكون هذا هو السبيل لاكتساب علم الحكمة وفن التأمل.

مادمنا قد جئنا إلى الأفكار المتناقضة، فدعوني أخبركم عن مجادلة غريبة سمعتها من أستاذي.

إنّه نقاش الدرويش مع الرحّال. وقد كان عن الأغنياء والفقراء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

احسن إليه وانساه، ولا تعيبه فتضيع الإحسان.

في قديم الزمان كان هناك رجّال يُسافر على ظهر بعير. ثم أقام في بيت مسافرين على الطريق. كانت الغرفة الكبيرة عند مدخل بيت المسافرين مزدحمة للغاية. لكنه وجد مكانًا مناسبًا وجلس.

وكان الأشخاص القادمين من مناطق مختلفة يتعارفون ويتحدثون مع بعضهم البعض. وأخذ أحد الدراويش الكلمة وبدأ بالتحدث بشكل سيء عن الأغنياء.

كان يقول: "إنّ الأغنياء لديهم الثروة والسلطة لكنهم لا يخطون خطوة نحو منطقة حسنة الخير. هؤلاء الرجال الذين يتصفون بصفاتِ قارون بارعون جدًا في الأخذ وبخلاء جدًا في العطاء. ما هذه الدنيا! لا يمتلك الأسخياء المال، وأولئك الذين لديهم المال ليسوا كُرماء."

فكانت كلمات الرجّال الذي حظي بالكثير من الإحسان من أصحاب الثروة ثقيلة للغاية.

إذ قال: "يا صديقي، إنك تتحدث عن الأغنياء ذهابًا وإيابًا. إلا أنّ الأغنياء هم باب رجاء الفقراء ومأوى الغرباء. وهم يحملون العديد من الأحمال من أجل راحة الآخرين. ما لم يأكل كبراؤهم فهم أنفسهم لا تصل أيديهم إلى المائدة. كما تذهب بعض وجباتهم للأرامل والأيتام واللطماء وعابري السبيل. إنهم يطعمون الضيوف ويوفون بالنذور ويضعون وقفًا في سبيل الله. ويخرجون زكاة الفطر والمال. ويذبحون الأضاحي ويطعمون الفقراء الذين لا يستطيعون أكل اللحوم.

كيف تلحق بالغني وأنت تدعي أنك تصلي فقط ومن ثم يصبح قلبك في قلق. القلق مما تأكله ومما ترتديه سيشغل قلبك ولن تجد السلام. إنّ ذهن الذين هم غير متأكدين من رزقهم يكون مُشتتًا. أما جماعة الأغنياء ليس لديهم مشكلة معيشية، قلبهم في سلام. لذا فإنهم يهبون أنفسهم تمامًا للعبادة.

الأغنياء أيضًا أصحاب قلوبٍ غنية ومتيسرة، لا يطمعون في أحد. لكنك تنظر إلى أيدي الناس لترى ما إذا كان هناك من يعطي شيئًا. بجانب الأغنياء هناك جميلات

أجسامهن مثل السرو، فلا يختلسون النظر إلى دار الحريم ويقعون في الإثم. لكن الفقراء محرومون من هذا، فعندما تمر إحدى الجميلات ذوات الوجه القمري أمامهم، لا يستطيعون السيطرة على أعينهم، ويقعون في الإثم.

الأغنياء ينتبهون لما هو حرام وحلال لأنهم ليسوا تحت ضغط. أما الفقراء فيأخذون المال الذي تقع عليه أيديهم سواء أكان حرامًا أم حلالًا. فلن يُفكّر الذئب الجائع إذا وجد اللحم، سواء أكان لحم ناقة النبي صالح أم لحم حمار المسيح، وسيأكله.

وهكذا جماعة الفقراء. الضرورة تجعلهم يفعلون ما لا يُريدونه. وكثير من الأتقياء والصادقين تجردوا من دينهم وشرفهم بسبب الحاجة."

استمع الرحّال إلى كلمات المُسافر بفارغ الصبر. كان غاضبًا، لكنه لم يُقاطع خصمه، مُفكّرًا في حكمة "لا أحد يعترف بجهله باستثناءِ من يبدأ الكلام بمقاطعة المتحدث". ولما جاء دوره استل لسان سيفه.

قال: "يا أخي! إنك تبالغ كثيرًا في صفات الأغنياء. حتى المستمع سيعتقد أنّ الأغنياء هم العلاج لسم الفقر ومفتاح مخزن الطعام. على الرغم من أنهم أناس متعجرفون، معجبون بأنفسهم، ينظرون إلى الناس باستعلاء، ومُغيبون بحب المال، وينسون الأحوال الأليمة للضعفاء. إنهم أغنياء بالثروة ولكنهم فقراء في الأخلاق. إذا تحدثوا، يتحدثون عن المُتعة واللذة. يقولون ماذا يأكلون، وماذا يشربون، وأين يتجولون. إنهم لا يفكرون فيما يأكله الفقراء، وما يشربونه، وكيف يعيشون.

تضيع مشاعرهم، لأن المعدة إذا امتلأت ينام القلب ولا يشعر. ليسوا بارعين في شيء. وليس لهم نصيب من المعرفة. يرتدون ثيابًا مزخرفة، ويتبخترون في الأنحاء. لقد قيل مَثَلٌ في هؤلاء: }الحمار الذي يُشد عليه سرج من ذهب يظل حمارًا{"

لا تُصادق من ليس له دوام، لأنه عديم الوفاء.

لم يعد بإمكان الرحّال تحمُّل الكلمات الجارحة للدرويش. فقاطع كلامه قائلًا: "ما أقسى لسانك! أنتَ محروم من المال، فتنتقم من الأغنياء. كن مُنصفًا قليلًا!"

"أنت مُخطئ! إنّ الأغنياء عبيد للمال. يبدون مثل غيوم المطر، لكنها لا تمطر على حقل أي شخص. إنهم يبقون عاليًا كالشمس، لكنها لا تعطي الضوء لأي أحد. لقد امتطوا حصان السلطة، لكنهم لا يسيرون من أجل حسنة الخير. إنهم لا يعطون أي شيء لأي شخص طالما لم يأخذوا المُقابل، وإذا فعلوا فإنهم يمنون عليه. إنهم يدخرون المال باستمرار، ولا يتحملون إنفاقه، ثم يموتون ويرحلون. وبينما هم يُحاسبون في القبر، يُبدّد ورثتهم كل تلك الأموال."

عندئذٍ قال الرحّال: "إنك تنظر إلى الأغنياء بعين الجشع والحسد، لكنك لا تستطيع رؤية الحقيقة. في نظر الحاسد، حتى الفضيلة تبدو وكأنها عيب."

فأجابه الدرويش: "أنت تعتقد هذا. أما أنا فأتحدث بناءً على خبرتي. هؤلاء الأثرياء يزرعون على أبوابهم أناسًا فظّين ووقحين وغليظين. عندما يأتي شخص جليل إلى الباب، فإنّ الحرّاس الذين لا يعرفون ما هو الأدب لا يسمحون له بالدخول، ويتشاجرون معه. كما يتساءل البعض [هل السيد في المنزل؟] فيُجيبون [ليس في المنزل.]. وفي الحقيقة هذا القول صحيح، فالثري البخيل الذي في المنزل لا يُعدّ رجلًا."

"أيها الدرويش! فكّر ثم تحدّث! راعي أعذار الأغنياء. لقد سئموا من أولئك الذين يأتون من أجل المال. والشخص الجشع لا يرضى أبدًا، كلما أعطيته رغب في المزيد. وأنت أيضًا تتوق إلى مالهم."

كانت هذه الكلمة ثقيلة على الدرويش. فبدأ بقول كلامٍ سيء للرحّال.

وهاجم الدرويش الرحّال قائلًا: "صوت الطبل يحجب صوت الكمان، وهذا ينطبق علينا! أنا أتحدث عن رأيي، وأنت تُضفي على الموضوع طابعًا شخصيًا، وتُحاول إنقاص قدري، وتُهينني.". ثم دخلا في شجار.

ونُقلت المسألة إلى المحكمة. وبعد الاستماع لكليهما التفت القاضي إلى الرجال وقال:

"أيها الرجال! في هذا العالم، الذي هو مكان للتجربة والمنافسة، تتعايش المتناقضات. فالحزن والفرح صديقان لا ينفصلان. وحيث توجد الوردة توجد الشوكة أيضًا. إنّ سيف الموت مخفي وراء ملذات الحياة. والشيطان الرجيم واقف أمام نعيم الجنة. وعلى الشاكلة نفسها، يوجد بين الأغنياء الشكور، ويوجد الكنود أيضًا. فهناك من ينفق ثروته من أجل الخير، ومن ينفقها فقط من أجل نفسه. وبالمثل، بعض الفقراء يتحلون بالصبر والبعض الآخر متمرد. البعض قنوع والبعض جشع. فإذا كانت كل قطرة ندى تحتوي على لآلئ، لكان السوق ممتلئًا باللآلئ. إذًا إنّه من صفات الأغنياء التفكير في الفقراء، ومن صفات الفقراء أيضًا عدم الطمع في مال الأغنياء."

وبعد أن قال القاضي هذا الكلام للرجال، التفت إلى الدرويش وقال:

"وأنت أيها الدرويش! نعم، بعض الأغنياء يتوافقون مع وصفك. إنهم لا يعرفون قيمة النعمة، وينسون من منحهم إياها، وينسبون كل نجاح لأنفسهم، لذا فإنهم لا يشكرون. فيقولون مثل قارون }إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي{ "سورة القصص/78". إنهم يحصلون على مكاسب بغير وجه حق، يسرقونها، ويُكنزونها. لا يأكلون ولا يُطعمون. ويجهلون بحال الفقراء. يفكرون قائلين [لأشبع وليمت من الجوع الآخرون. ما شأني!]. ولكن بعضهم وضعوا مائدة النعم ورحبوا بالجميع. وقابلوا الجميع بتواضعٍ وحب. فأنفقوا مالهم على الخير. وأرادوا كسب الآخرة بثروة الدنيا. وعرفوا مانح النعم فحمدوه."

عندما قال القاضي الكلمات الجميلة بهذه الطريقة، اتفق معه الرجال والدرويش. ونسيا شجارهما وتصالحا. ثم قالا كلماتٍ طيبة لبعضهما البعض وسامحا في حقهما.

الإحسان إلى الطالحين هو إساءة للصالحين.

لماذا أتيتُ إلى هذه الأراضي البعيدة؟ ولماذا لم أعد إلى مسقط رأسي لسنوات؟ ولماذا قضيتُ معظم حياتي في أراضي الأناضول؟

ربما تساءلتَ عن إجابات هذه الأسئلة. قبل أن أجيب على هذه الأسئلة، يجب عليّ إيضاح عذري.

أنا في سن التسعين. وقد ضعفت ذاكرتي. فلا أستطيع سرد الأحداث كليًا بالترتيب. لهذا السبب أحكي في المستقبل أحيانًا وفي الماضي أحيانًا. وأطلب منك أن تتغاضى عن قصوري.

بادئ ذي بدء، يجب أن أخبرك كيف بدأت فترة مهمة في حياتي، لأنه لا يمكن تشييد بناء دون وضع الأساس.

كانت ليلة مظلمة. وقد جاء الأمير لزيارة أستاذي. ولم يكن معه أحد. لم يُحضر حتى مساعده، الذي لم يفترق عنه مثل الظل. كنتُ أشعر بالفضول نحو السبب لكنني لم أسأل.

قال: "يا سيدي، لم أتمكن من زيارتك فترةً طويلة مرةً أخرى. إنّ فتنة الباطنية تستمر. ودولتنا تحت التهديد. لقد كنتَ على حق، إنهم يُخفون أنفسهم جيدًا. لقد اندهشتُ عندما أدركتُ أنّ بعض رجالنا الأكثر ثقة هم باطنيون. ووالدي السلطان قلق للغاية. إنّه يُرسل إليك التحية. لقد كلفني بمهمة. وأنا أفكّرُ في اتخاذ إجراء دائم ومُؤثر مُستشيرًا إياك وآخذًا بنصائحك."

"سيدي الأمير، سأخبرك بكل ما أعرفه. كما أنه لديّ بعض الأفكار بهذا الخصوص. لكن التنفيذ قد يستغرق وقتًا طويلًا. ومن الضروري معرفة ذلك وعدم توقع نتائج فورية. إنّ دَفْعَ علةٍ خبيثة، انتشرت وتفرعت منذ عدد من السنوات لا يعلمها إلا الله، في فترةٍ قصيرةٍ أمرٌ يتجاوز طاقة البشر."

"أنا مُدركٌ لهذا يا سيدي. إنّ المرض في الداخل. لهذا السبب، علاجه أصعب. لكن يجب البدء من مكانٍ ما. إنّ هذه القضية لا تهم دولتنا فقط. فأيادي الفتنة نفسها

تمتد في الأراضي الإسلامية جمعاء. لذا لا يكفي تنظيف الباطنية الموجودين في بلادنا، فهم يجتمعون في البلدان المجاورة، ويصلون إلى الناس، أحيانًا كمسافرين، وأحيانًا كتجار، وأحيانًا كمعلمين، وأحيانًا كطلاب، ويستمرون في الفتنة والفساد. حتى لو اتخذنا الإجراءات التي نريدها في بلدنا، فلا يمكننا التدخُّل في إجراءات وإدارة السلاطين الآخرين. وهذه الحقيقة تجعل عملنا أكثر صعوبة. إذا سمحت لي، أود أن أسألك عن بعض القضايا التي تُقلقني بشأن الباطنية. أحتاج هذا لتشخيص المشكلة."

"تفضل سيدي الأمير."

"ما هي فكرتهم الرئيسية؟ وما القضية التي يدعمونها؟ ولأي غرض يركضون خلف الفتنة والفساد؟"

في البداية كان أستاذي صامتًا بعض الوقت ويفكّر. كان يفعل ذلك دائمًا في الأمور المهمة. فكان يُرتّب المعاني في ذهنه أولًا ثم يعلنها بالترتيب مثل حبات اللؤلؤ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا تتوقع الخير من صديقك الذي يجلس مع عدوك.

"إنهم ينتسبون إلى تيارٍ ظهر بين المسلمين. وهم لا يتقبلون المعاني الظاهرة للناس، ويقولون إنّ من يسمونه "الإمام المعصوم" هو فقط من يمكنه معرفة المعاني الحقيقية."

"سأسأل عن مصطلح الإمام المعصوم بعد قليل. لكن لأسأل أولًا: ما هو النص؟"

"يُطلق مصطلح النص على الآيات والأحاديث وهم ركيزتا الدين الإسلامي. يُستخدم هذا المصطلح لأنّ كل مسلم يقبلها دون تردد."

"حسنًا سيدي، فهمتُ. يُقال إنّ الباطنية لديهم بعض الأذرع والفروع والأقسام والشُعب."

"نعم، إنّه كذلك. يتم تسميتهم بأسماء أخرى في مناطق مختلفة. مثل الإسماعيلية والسبعية والتعليمية والإباحية والمزدكية والبابكية والزندكية والملاحدة والقرامطة والناصرية والنُصيرية والدُرزية والمُحمّرة والخُرّامية والكيسانية والجالية والصباحية. والخرّوفية التي تطورت بعد ذلك وانتشرت هي إحدى مذاهب الباطنية."

"أين ظهرت هذه الباطنية في البداية؟ ومن أسسها ومتى؟"

"شوهدت في العديد من البلدان الإسلامية، وعلى رأسهم العراق وبلاد فارس وسوريا والأناضول ومصر والهند. ويُقال إنها بدأت على يد شخص اسمه ميمون بن ديسان."

"لقد أنشأوا دينهم تحت اسم الإسلام. ماذا يقول عنهم العلماء الذين يحكمون بالكتاب والسنة؟"

"يُشيرون إليهم في الفقه بتعبير "الفرقة الضالة". وتعني "الجماعة المنحرفة". فلديهم انحرافات خطيرة في أمور مثل الألوهية، والآخرة، والنبوة، والإمامة، والإباحة، والتقية."

"اسمح لي أن أطرح الآن السؤال الذي أجلته يا سيدي. من هو الشخص الذي

يسمونه "الإمام المعصوم"، أي نوع من الأشخاص هو؟"

"حسب اعتقاد الباطنية، فإنّ الإمام البريء هو من يستطيع التحدث مع الله. ويعرف المعاني الخفية للآيات والأحاديث. كما أحضر كلمات وظاهر وحي النبي. وفقط الإمام المعصوم هو من يستطيع معرفة معناه الباطني أي معناه الحقيقي.

من أجل الإيمان الكامل، من الضروري الاستسلام للإمام والقيام بكل ما يقول. الاستماع لأوامره أهم من الصلاة والزكاة والصوم."

"هل مثل هذه التيارات موجودة في العالم الإسلامي فقط؟ هل شوهدت بين اليهود والنصارى؟"

"هناك جماعة يهودية في المنتصف. يتصرفون بشكل مختلف فيما بينهم وبشكل آخر في الأماكن العامة. يتعرفون على بعضهم البعض بعلامات ورموز خاصة. ويطلق الأجانب على أعضاء هذا التيار اسم "الماسونيون"."

"ماذا عن النصارى؟"

"خلال رحلتي إلى القدس، عرفتُ بعض المعلومات. كان هناك حديث عن جماعة تُسمّى "فرسان المعبد". لقد كانت جماعة متخفية وخطيرة للغاية."

"ماذا تعني كلمة فارس؟"

"الأجانب يُطلقون كلمة "فارس" على الجندي المُحارب المُدرّب جيدًا."

"أين تأسست هذه الجماعة؟"

"في القدس وضواحيها. المقصود بالمعبد هو المسجد الأقصى. وبسبب ذكرى الأنبياء القدماء، فإنّ كتابهم مقدس لدى الأديان."

"لنعد إلى مسألة الباطنية مرةً أخرى. فإنهم بلاءٌ كبير حَلّ فوق رؤوسنا. أثناء تصنيف نقاط الانحراف استخدمتَ مصطلح [إباحة]. ماذا يعني؟"

"هو إباحة الحرام، أي رفع حدود المنع وإطلاق سراحه. والشخص الذي يسمونه

الإمام المعصوم هو صاحب هذه السلطة. إذ يقولون: [من يتقدم في المذهب ليس عليه إتباع الأوامر والنواهي الواردة في كتب الفقه. فالقيام بهذه الأشياء يختص به الأناس العاديون.]"

"وهناك أيضًا مصطلح [التقية] ..."

"نعم .. حسب الباطنية لا يستطيع كل فرد أن يفهم ويستوعب المعاني الخفية في الآيات والأحاديث والتي يشرحها الإمام المعصوم. كما يجب أن تبقى سرية ولا ينبغي قولها لمن لا ينضم إلى المذهب. كذلك لا ينبغي أن يكشف باطني عن نفسه أو عن أصدقائه. فيجب أن يكون مثل واحد من الأشخاص المحيطين به. هذا الأمر يُسمّى التقية. وهو مزيج من الرياء والكذب والخداع والتدليس. إنها الشخصية المزدوجة."

"كيف يعرفون بعضهم البعض؟"

"بإشاراتٍ ورموزٍ خاصة."

لقد تحدثوا لفترة طويلة عن هذه المسألة. لكن لسوء الحظ، لا أستطيع تذكرهم جميعًا.

في النهاية قال الأمير: "بعد إذنك يا سيدي سأذهب. ولنتحدث عن هذه القضية المهمة مرةً أخرى لاحقًا."

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحمار الذي يشد الحمولة خيرٌ من الأسد الذي يُمزق الرجل.

بالطبع لم يتحدثوا في كل مرة عن قضية الباطنية. فلقد قص أستاذي على الأمير العديد من الحكايات عن السلاطين ورجال البلاط.

وأود أن أكتب هنا بعض القصص ذات العبرة التي لا أستطيع نسيانها بسبب تأثيرها عليّ.

مات أحد الملوك وجلس ابنه الأكبر على العرش. لقد كان شخصًا في غاية الكرم. حيث قام بتوزيع جزء كبير من الأموال الموجودة في الخزانة على جنوده والأهالي الفقراء.

فأراد الوزير، الذي رأى هذا، تقديم النصح للملك الجديد.

"إنّ الملوك الذين سبقوك جمعوا هذه الأموال في حالة احتياجهم إليها في المستقبل. فإذا استمررت على هذا النحو سوف تُفلس. وإذا هاجمنا العدو سوف يقهرنا. وإذا وزعت الخزانة كلها على الناس سوف يحصل كل منهم على مقدار من الفضة بحجم حبة الأرز. أما إذا حصّلتَ ضريبةً من كل واحد منهم بحجم حبة الأرز، سوف تتضاعف الأموال الموجودة في الخزانة."

لم يُعجب الملك بهذه النصيحة وعَزَلَ الوزير. وقال للرجال من حوله:
"كان لدى قارون ثروة تملأ الخزائن. هلكت جميعها، وبقيت السمعة السيئة من بعده. أما نوشيروان فكان كريمًا مع شعبه، وترك سمعةً طيبةً من بعده. وأنا أريد السير في طريق الكرم."

لقد كان هذا الملك عادلًا للغاية. حتى أنّه ذات يوم خرج للصيد مع جنوده. ومكثوا في مكانٍ ما وطهوا الحيوانات التي اصطادوها. لكنهم وجدوا أنّه ليس معهم ملح.

فأرسل الملك أربعة من جنوده إلى قرية مجاورة، وأمرهم قائلًا: "احرصوا على دفع المال للقروي الذي يعطيكم الملح."

قال أحد رجاله الفقربين: "سيدي السلطان، ما الضرر في بعض الملح؟"

عندئذٍ قال الملك: "إنَّ الظلم في البداية كان بمقدار النقطة، ولقد وصل به الناس إلى هذا المستوى من خلال زيادته شيئًا فشيئًا. فإذا أكل السلطان تفاحة من شجرة فلاح، اقتلع رجاله الشجرة. وإذا أخذ السلطان بيضة بغير وجه حق، فإنَّ جنوده يسفدون لحم الدجاج كله. لذا فعلى السلطان أن يتحمل أعباء الناس وألا يكون عبئًا على الناس. فالحمار الذي يشد الحمولة خيرٌ من الأسد الذي يُمزق الرجل."

آهات المظلوم كالنار يومًا ما ستحرق الظالم.

في قديم الزمان مرض السلطان بمرض عضال. وعندما لم يتمكن أطباء القصر من العثور على علاج، تم استدعاء أطباء بارعين من بلاد بعيدة.

فقام الأطباء بفحص السلطان واتخذوا القرار التالي: "إنّ علاج هذا المرض هو دم الإنسان. لا نرى أي حل آخر."

ثم شرحوا بالتفصيل الصفات التي يجب أن توجد في الشخص الذي يُراق دمه.

بحثوا وفتشوا في جميع أنحاء البلاد. وأخيرًا وجدوا شخصًا يُناسب الوصف. لقد كان طفلًا قرويًا.

فأحضروا الطفل الذي سيُراق دمه إلى القصر مع والده. وأقنع السلطان الأب بإعطائه المال والممتلكات.

ثم أحضر السلطان القاضي إلى مجلسه وقال: "قُم بتشكيل محكمة واصدر الحكم."

عندها أصدر القاضي، الذي كان جشعًا في مال الدنيا، الحكم قائلًا: "قتل الطفل مناسبٌ من أجل صحة سلطاننا."

أحضروا الطفل الذي سيُراق دمه إلى حديقة القصر لتسليمه إلى الجلاد. وعندما رأى الطفلُ السلطان والقاضي والجلاد مجتمعين، رفع رأسه ونظر إلى السماء وقال شيئًا وهو يبتسم.

لفتت هذه النظرة والابتسامة انتباه السلطان. فأمر قائلًا: "احضروا الطفل إليّ لأسأله لماذا نَظَرَ إلى الأعلى ولماذا ابتسم."

وعندما أحضروه، سأله السلطان قائلًا: "أيها الطفل! إنّ الأجل خلفك ينتظر الجلاد. فلماذا نظرت إلى الأعلى وبماذا فكّرت ولماذا ضحكت؟"

فأجابه الطفل المسكين:

"إنّ محبة الطفل تخص والده أكثر من غيره. ومع ذلك، قد باع والدي حياتي مقابل المال. والمظلوم يذهب إلى القاضي لينال حقه. ومع ذلك، حكم القاضي بموتي من أجل منصبه الشخصي ولكي يحظى بمكانةٍ لدى السلطان. فإذا يأس المظلوم من القاضي، فإنّه يأمل في العدالة من سلطانه. لكن السلطان يرى صحته في موتي. فكّرتُ في هذا ونظرتُ إلى الأعلى. وطلبت من ربي العدل والرحمة. فشعرتُ بالسعادة وضحكتُ لأنني آمنتُ بأنّه سيرحمني."

تأثر السلطان بهذا. وقال: "إنّ الموتَ خيرٌ لي من قتل الأبرياء عبثًا."

ثم عانق الطفل بحنان، وقبّل رأسه وعينه، وطلب العفو، وأعطاه الكثير من المال والممتلكات، وأرسله إلى قريته.

ويقول رواة هذه القصة: "بدأت صحة السلطان في التحسن بعد أسبوع من هذه الحادثة، وتعافى في وقت قصير."

لطالما كان المنحرفون موجودين، وسيظلون موجودين دائمًا من الآن فصاعدًا...

كان لقضية الباطنية مكانة مهمة في حياة الأمير. وذات مساء سأل قائلًا: "يا سيدي، كيف تم تنظيمهم؟ هل لديهم مخطط تنظيمي؟"

"نعم، يوجد. وهو مخطط منتظم أيضًا. هناك شخص في القمة يسمونه "الإمام المعصوم"، وهو الرجل الذي يدير التنظيم بسلطة كاملة. بعده مباشرةً، يأتي اثنا عشر شخصًا يُطلق عليهم اسم "حُجة". أربعة منهم بالقرب من الإمام، وثمانية في أماكن أخرى. يتصرفون نيابة عن الإمام. وبعد الحجج، يأتي "الدعاة". وهم يدعون الناس إلى التنظيم باسم الإمام. وهم ينقسمون إلى قسمين "مُكلب" و"خريج". الـمُكلب يُعلّم الفروع، والخريج يُعلّم الأساسيات. أما القسم الرابع فهو جماعة "الـمُستجيبين". وهؤلاء هم الأشخاص الذين يستجيبون للدعوة، أي أنهم ينضمون للتنظيم."

"حسنًا، كيف ينضم الرجال؟ يجب أن تكون هناك طريقة لتجنيد كل هؤلاء الرجال."

"لديهم طرق تتطلب الانتباه والدقة والصبر. بتعبير أدق سلسلة من الطرق. في البداية، يحرصون عند اختيار الرجال. إنهم يعطون الأولوية للأشخاص ذوي المعرفة الدينية الضئيلة، الطماعين في المناصب والمكانة والثروة والشهرة. فيعتنون بهم ويجعلونهم مجموعة مُخلصة في تسع مراحل."

"أي مراحل؟"

"تفرُّس، تأنيس، تشكيك، تعليق، ربط، تدليس، تأسيس، خلق، انصلاح."

"ماذا هم، هل يمكنك الإيضاح قليلًا؟"

"حسنًا، لأوضحها بإيجاز:

في مرحلة [التفرُّس]، يتم اختيار المرشح ومعرفة مؤهلاته وتحديد الطريقة التي سيتم تطبيقها عليه.

في مرحلة [التأنيس]، يتم التقرُّب منه وإكسابه الثقة بإظهار التقوى الكاملة.

في مرحلة [التشكيك]، تُطرح أسئلة صعبة على المرشّح وتُزرع بذور الشك في ذهنه.

في مرحلة [التعليق]، يُترك المرشح وحده مع أسئلته وشكوكه فترةً؛ أي أنّه موقوف عن العمل.

في مرحلة [الربط]، يتم إقناع المرشّح من قبل مُتحدثين طلقي اللسان، فيتم تسليمه، وعند قبوله يجعلونه يُقسم قائلًا: }سأظل مُخلصًا للإمام حتى النهاية، وإن لم أظل فزوجتي تكون طالقًا{.

في مرحلة [التدليس]، ينخدع المرشح بقول إنّ بعضًا من كبار العلماء هم من الباطنية أيضًا.

وعندما تأتي مرحلة [التأسيس]، يُغرس في المرشّح فكرة أنّ الآيات والأحاديث لها معانٍ خفية.

أما في مرحلة [الخلق]، يُقال له }الآن أنت تعلم المعاني الخفية، فلا يجوز لك اتباع أوامر الدين الظاهرة.{. فيجوز الكذب والافتراء وشرب الخمر وما إلى ذلك إذا كان في مصلحة التنظيم.

وفي مرحلة [الانصلاح]، يتم شرح التفاصيل الدقيقة لفكر الباطنية بعُمق وجعلها مقبولة. وهكذا، يتم استبدال "مبادئ العقيدة" بـ "التسليم المطلق للإمام".

وهذا التسليم هو أنّه إذا جاء أعظم عَالِم في العلماء وأخذ براهين من آيات وأحاديث حول قضية ما، فلن يُصدّقه الشخص الباطني، وسيتخذ كلمة الإمام المعصوم أساسًا."

"يا له من تكتيك قوي ويا له من صبر عظيم! كيف يجاهدون من أجل قضية باطلة!"

"إبليس له يد في ذلك أيضًا. لأنّ إبليس يمنع الخير ويدعو للشر. من ناحيةٍ أخرى، يستخدم الباطنية فضول الناس بالأمور السرية وشغفهم بالتميّز."

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"هل كل التيارات الباطنية هي نفسها من حيث التأسيس والتطور وطرق العمل؟"

بالرغم من أنهم ليسوا متماثلين تمامًا، إلا أنّه من الواضح أنّ هناك أوجه تشابه كبيرة بينهما. هناك دائمًا مشعلو فتن، وسيظلون موجودين من الآن فصاعدًا. إنهم مثل الخيط الذي يمتد من الماضي، وأحيانًا يصبح رقيقًا لكنه لا ينكسر أبدًا."

"أصبحت طائفة تُسمّى الحشاشين أكثر شهرة في منطقتنا."

"إنهم أخطر طوائف الباطنية. اسمهم الحقيقي هو الحشيشيين. ويُسمّون أيضًا بـ"الحشاشين". ويُسمّون أيضًا صباحية نسبة إلى إمامهم حسن الصباح. كان الصباح عالمًا من مذهب الإسماعيلية. ثم أسس دولة نزارية إسماعيلية. وقاد تنظيمه من قلعة "آلموت". بعد ذلك أحضروا الأطفال الفقراء إلى القلعة وغرسوا أفكارهم الضالة. والأطفال الذين قاموا باتباع التعليمات في مكان مُغلق ولم يتمكنوا من الحصول على معلومات من مصادر أخرى، استسلموا بالكامل لأئمتهم وأصبحوا فداءً لهم. هؤلاء هم الأنواع الذين يمكنهم التكيف مع أي بيئة، والاختباء جيدًا، الانضمام إلى أقرب دائرة من رجال الدولة. الآلاف من الفدائيين الذين ماتوا وقُتِلوا بناءً على الأوامر."

"لقد اعتادوا تخدير أنفسهم بالخشخاش. هذا هو السبب في أنهم يغامرون بلا خوف في كل خطر. هل هذا صحيح؟"

"هناك من يقول ذلك. لكني لستُ متأكدًا. ويمكن أن يكون أيضًا انتسابًا لمن لا يدركون قوة الإيمان بقضيةٍ ما."

كانت محادثات أستاذي والأمير مثيرة للفضول حقًّا. بعد فترةً، غادر الأمير. وكنتُ على يقين من أنّه سيأتي مرةً أخرى ويود التحدُّث أكثر عن هذا الموضوع. هناك موضوعات أخرى يجب أن أنقلها عن أستاذي. هذا أمر مهم. فأنا أخشى أن أنسى. لذا اسمحوا لي أن أكتبهم الآن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحدّث وفقًا لإدراك المخاطب ومزاجه.

كان إحدى أيام الجمعة. فذهبنا إلى المسجد للصلاة. وبعد الصلاة، أراد بعض الأهالي التحدّث عن مسألةٍ ما مع أستاذي.

قال رجل عجوز، وهو من أعيان الحي وكان يعرف سيدي منذ فترة طويلة: "يا سعدي، عندنا طلب منك. لقد عينني أهالي الحي نائبًا عنهم. لذا سوف أنقل طلبهم إليك."

قال أستاذي: "تفضّل يا أخي، تحدّث."

"جميعنا نعلم علمك وحكمتك. ونحن على يقين من أنّ لديك أفكارًا قيّمة حول التربية. لذا يريد آباء الأطفال الاجتماع والاستماع إلى نصيحتك."

وافق أستاذي على هذا الطلب. فجاء اثنان وخمسون شخصًا إلى المنزل معنا وملأوا الغرفة.

لم أر قط أناسًا بهذا القدر معًا في المنزل منذ أن بدأت في خدمة أستاذي. بعد الترحيب تحدّث أستاذي عن أسلوبه في التدريس.

"يا أخواني، أنا لا أقول للناس افعلوا ذلك ولا تفعلوا هذا. وإنما أروي قصصًا وحكاياتٍ ذات عبرة، والمستمعون يأخذون الدرس الذي يريدون تعلّمه."

فقال العجوز النائب عن الناس: "حسنًا يا سعدي، هذا الأسلوب يناسبنا أيضًا. هيا احكِ."

روى لهم أستاذي قصصًا واحدةً تلو الأخرى، وقال بينهم جُملًا مثل اللؤلؤ والمرجان.

في قديم الزمان كان هناك سلطان. دعا أهم عالِم ومُعلّم في ذلك الوقت إلى قصره.

وقال: "سمعتُ عن طريقتك في التربية. وأريدك أن تعلّم ابني أيضًا. سوف تربيه مثل ابنك."

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

أمضى المعلم عامين في تعليم الطفل. لكن عمله لم يؤت ثماره. وفي أثناء ذلك، قطع أطفاله شوطًا طويلًا في التعليم.

عندئذٍ قال له السلطان مُعاتِبًا العالم: "كنتَ سثربيه مثل أطفالك، ولكنك لم تفِ بوعدك!"

قال المعلم: "يا حضرة السلطان، التربية متساوية لكن القابلية مختلفة. لقد طبقتُ أساليب التعليم نفسها على كل منهم. لكن ذا القابلية تطور، والآخر لم يتطور. وأنت تعلم أنّ الذهب والفضة يخرجان من الأرض، ولكن لا يوجد الذهب والفضة في كل قطعة أرض. تُعطي الشمس ضوءها لجميع الجوانب بالتساوي، لكن كل نبات يستقبل منها وفقًا لطبعه الخاص."

كان السلطانُ مُستاءً لأنّ ابنه غير موهوب، لكنه لم يستطع ألا ينسب الفضل إلى العالِم.

في نظر كل شخص، يبدو عقله هو الأكثر كمالًا وأنّ طفله هو الأكثر جمالًا. وإنّه لأمر مؤلم للغاية أن ندرك أنّ هذه ليست الحقيقة بالفعل. لكن ليس هناك خيار آخر سوى تقبلها.

الصَنعة مثل ينبوع لا ينقطع ماؤه.

العلم ليس كافيًا. يجب أيضًا تعليم الصنعة. لقد قام صاحب علمٍ وحكمةٍ بجمع أولاده حوله وأعطاهم النصيحة التالية:

"يا أبنائي، تعلّموا الصنعة. فالمال والممتلكات لا يمكن الوثوق بهم. فهم دائمًا مُعرضون للخطر. فإنهم ينتهون إما بلصٍ يسرقهم أو بإنفاقهم. أما الصنعة مثل ينبوع لا ينقطع ماؤه. فائدتها دائمة. ودائمًا تستمر. إنّ الصنعة نفسها شيء ثمين. فالصانع أينما ذهب يجد الشرف. ويكون له مكانة بين الناس. أما عديم الصنعة أينما ذهب يتخبط في الاحتياج، ويمد يده إلى هذا وذاك. فالشخص الذي عاش مرتاحًا واعتاد على إصدار الأوامر لا يمكنه تحمل الصعوبات. ولا يمكن قيادته. كما أنّه سيكون غير مناسب، فهو لن يستطيع أبدًا ضبط الأمور في العمل."

في أحد العصور كان هناك اضطرابًا في الشام. لدرجة أنّه لا أحد يستطيع البقاء على قيد الحياة، غنيًا كان أم فقيرًا. وكان على الجميع الفرار إلى جانب واحد.

جاء أطفال القرية إلى المدينة. وبفضل صنعتهم ومهاراتهم، وجدوا عملًا وأصبحوا أثرياء.

وذهب الأطفال الأغنياء، الذين اضطروا لمغادرة المدينة، إلى القرى بالرغم منهم. لكن لأنهم لم يتمكنوا من فعل أي شيء؛ إذ لم يكن لديهم أي مهارات، كانوا يتضورون جوعًا ويتسولون.

لقد قابلتُ الكثير من الناس خلال رحلاتي. وقد شهدتُ محادثاتٍ ذات مغزًى. وكانت المحادثة بين الشيخ وتلميذه واحدة منها.

كان الشيخ يقول: "لو كان الناس يرتبطون بالرازق مثل ارتباطهم بالرزق، لعلوا فوق الملائكة. تخيّل أنك كنتَ في رحم أمك قطرة ماء عديمة العقل والفكر. وربك لم ينساك ولم يُهملك. فأعطاك الحياة. وجمّلك بصفاتٍ مثل العقل والفكر والخيال والذاكرة والقدرة على الكلام. كما وضع عينين وأذنين على رأسك وأنف وفم على وجهك. ووضع ذراعين على كتفك. وأضاف خمسة أصابع لكل يد من يديك. أيها

الإنسان الجشع! هل من يصنع ويخلق ويعطي كل هذه الأشياء، ينسى رزقك أبدًا!"

كان أحد البدو يقول لابنه: "يا بُني، يوم الحشر لن يسألوك [ابن من أنت؟] ولكن سيسألونك [ماذا جنيت؟ وماذا أحضرتَ إلى هنا؟]"

إذا جلس أحدهم مع شخص ما وقام فإنّه في النهاية يصطبغ بصبغة هذا الشخص. فالذي يُجالس الصالحين يجد الصلاح.

يتسابق الناس لتقبيل كسوة الكعبة الشريفة. هل تعرف لماذا؟

لأنها مقترنة بالكعبة. إنّ الكعبة مُقدسة، فصارت الكسوة مُقدسة واكتسبت قيمة.

الرجل تقي القلب.. في غيابه كحضوره.

لفترة من الوقت، تحدّث أستاذي عن الأمور التي يجب مراعاتها في العلاقات مع الناس، وآداب المحادثة، ودقة الحديث وأهمية حفظ الأسرار. فتحدّث بكلماتٍ في غاية الجمال.

إذا كان الشخص ذا الأخلاق يُعاني من شخص عديم الأدب فلا يحزن. لأنّه مثل حجر يكسر وعاءً من الذهب. ففي هذه الحالة لن تزيد قيمة الحجر ولا تنخفض قيمة الذهب.

إنّ الغني الفاسق يُشبه الروث المطلي بالذهب، والفقير الصالح يُشبه الحسناء التي يُغطي وجهها التراب.

وإنّ العالِم الحقيقي مثل زجاجة المسك التي لا تصدر صوتًا لكنها تنشر عطرًا جميلًا. أما كامل الجهل، فهو مثل الطبل الذي يصرخ بصوتٍ عالٍ ولكن داخله فارغ.

لا تكشف العيوب الخفية للناس، فمن ناحية ستفضحهم ومن ناحيةٍ ستفقد ثقة الناس بك.

الصمت في محله فضيلة أيضًا. وكلما فكّرتُ في فائدة وحكمة الصمت، تتبادر إلى ذهني هذه القصة الصغيرة.

كان هناك رجل أحمق يُحاول تعليم حماره الكلام. فقال له رجل عاقل: [لا يستطيع حمارك تعلُّم الكلام منك، لكن على الأقل تعلم أنت الصمتَ منه!]

صاحب العلم والأدب، لا يتحدث إلا إذا رأى الآخرين صامتين.

لا تتحدث حين يجب أن تصمت! ولا تصمت حين يجب أن تتحدث!

إنّ الكذبَ مثل جرح السيف. حتى لو شُفي جرح السيف، تبقى الندبة. فيتم تذكُّر المرء أيضًا بسبب كذبه. حيث يعرف الناس أنّه كاذب.

إنّ العداوة بين شخصين مثل النار، أما النمّام والغمّاز الذي ينقل الكلام فهو حامل الحطب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وليس من عمل الرجل الحكيم أن يشعل النار بين الخصوم ويحرق نفسه أيضًا في المنتصف.

والشخص الذليل الوضيع الدنيء يغتاب الشخص الذي لا يستطيع التغلُّب عليه بالمهارة.

ومن يُجادل عالمًا ليُظهر أنَّه صاحب علم، يُعلن جهله.

إذا بدأ الكلام شخص أعلى منك، فلا تعترض حتى لو كنت تعرف الموضوع بشكل أفضل.

فقط لأنَّ الشخص لديه فك قوي لا يعني أنَّ عمله جيد. فإنك ترى العديد من الأبدان تحت الغطاء، فإذا فتحتَ ترى أنها جدة عجوز.

قال أستاذي العديد من الكلمات الجميلة مثل هذه وروى القصص. وإذا كتبت كل منها، فسيطول الكلام.

كان الأهالي الذين يستمعون باهتمام إلى كلامه سعداء للغاية، وأخذوا يدعون لأستاذي أثناء مغادرة المنزل.

يحتاج العقل إلى العلم، ويحتاج القلب إلى الحكمة.

بعد أن بدأتُ التعرُّف على أستاذي عن قُرب أكثر، فهمتُ بشكل أفضل سبب إصرار والدي على التواجد معه.

لقد كان لدى أستاذي العقل والقلب معًا، تمامًا مثل طائرٍ له جناحان. فبينما كان ينير عقله بالعلم، أضاء قلبه أيضًا بالحكمة.

لقد طبّق ما يعرفه على حياته. وهذا هو المكان الذي يأتي منه صدق مؤلفاته.

كما تمت تصفية كل كلمة له من خلال مصفاة التجربة، وتمريرها على إنبيق الأدب، ثم غرسها في قدر الأسلوب.

قد يبدو من السهل على القارئ أن يكتب مثل مؤلفاته، ولكن عند التجربة يُفهم أنّه لم يكن كذلك.

حتى في أبسط كلماته، كانت هذه المعاني العميقة غامضة بحيث لا يفهمها سوى خبير.

في سنوات شباب أستاذي، كانت أهم الدول الإسلامية هي الغزنوية والسلاجقة. كانوا يحملون علم التوحيد ضد العدو بالمجد والشرف.

وكان هناك غزو مغولي. فكان يوجد حرب وفتنة وفساد وصراع واضطراب.

وسافر أستاذي خلال هذه السنوات المضطربة. والتقى بالعديد من العلماء وتحدّث معهم. ورأى العديد من البلدان. كما كتَبَ بعض المؤلفات قبل العودة إلى منزله.

لكن مما لا شك فيه أنّ أهم أعماله في الأدب وعلم الحكمة كان گلستان (البستان).

بعد أن غادرتُ، قام أشخاص آخرون بكتابة نسخ منه ونشرها في كل مكان. لكن لا أعرف ما إذا كانت هذه مُطابقة للأصل. فأنا لم أر أو أقرأ أيًا منهم.

وفي دفتر الملاحظات هذا، أكتب ما رواه لي أستاذي وما مررنا به خلال هذا الوقت. بالطبع بقدر ما أستطيع أن أتذكر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان أستاذي يروي ذكرياته من وقت لآخر. البعض منها قد عاشه والبعض الآخر قد شاهده.

وكل هذه كانت عبرة لنا. لأدرج هنا بعضًا مما بقي في ذهني على سبيل المثال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشخص المثالي لا يؤذي حتى ولو تم إيذاؤه.

بنيّة الحج، ركبتُ ناقتي وانضممت إلى قافلة. ثم اندلع شجار بين الحجاج. وتبادل الطرفان قول كلماتٍ بذيئةٍ لبعضهما البعض.

فقال لي رجل شاهد الواقعة: "هذا ما يجب أن يُقال للحاج الذي يؤذي الناس: لم تحج. الذي حج هو الجمل. لأنّ الحيوان المسكين يحمل الحمولة من جهة وطعامه العشب والأشواك من جهة أخرى."

كان لي صديق في تبريز. ذهبتُ لزيارته ذات يوم. فوجدته يعمل في الحديقة. وبجانبه رجل قوي ذي بأس. كان يساعده في العمل.

أصرّ صديقي أن أمكث ضيفًا في منزله فترةً. فكنتُ أرى كل يوم الرجل الذي ساعده في الحديقة.

ثم لم يأتِ. وترك عمله غير مُكتمل. وعندما سألتُ صديقي عن السبب، شرح لي.

كان الرجل مريضًا في عينيه. وكان لا يرى بوضوح. فذهب إلى الطبيب البيطري للعلاج لأنّه أرخص من الذهاب إلى الطبيب البشري.

قال: "اصنع دواءً لعيني."

فصنع الطبيب البيطري علاجًا للحيوانات وأعطاه له. وعندما عاد الرجل إلى منزله، وضع الدواء في عينيه وأُصيب بالعمى تمامًا.

فذهب إلى المحكمة ورفع دعوى على الطبيب البيطري وطالب بديّة مقابل عينيه. وبعد أن استمع القاضي للأطراف، اتخذ القرار التالي:
"لا يتوجب عقوبة الديّة. فإذا لم يكن هذا الرجل حمارًا، لما ذهب إلى الطبيب البيطري للعلاج."

قلتُ لصديقي الذي روى الحادث: "من أعطى عملًا للشخص الخطأ وواجه نتيجة سيئة، فعليه أن يبحث عن الخطأ في نفسه. فالشخص الناضج صاحب الفكر يعرف من أي شجرة يحصل على أي نوع من الفاكهة. وإذا ضاعت أموال من يقوم بتسليم

منوال الحرير لشخص ينسج الحصير، فهذا ذنبه هو!"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ها هو العدو، وها هي ساحة القتال!

قبل سنوات، ذهبتُ في رحلة وانضممتُ إلى قافلة مُتوجِّهة من بلخ إلى شاميان. وكان الطريق خطيرًا بسبب اللصوص. لهذا عينوا شابًا لحراسة القافلة.

هذا الشاب الذي كان يسير أمامي في القافلة، كان ماهرًا جدًّا في استخدام السيف. كما أنّه كان يسحب قوسًا صلبًا ويُطلق سهامًا تُصيب الهدف.

بالإضافة إلى أنّه لم يكن له مثيل في القتال. فكان يتفاخر بمهاراته في كل مكان نُقيم فيه.

عندما يأتي أمامه جدار قديم، كان يهدمه. وعندما تأتي شجرة، كان يُطيح بها. وكان يقول: "ليأتي الفيل ويرى القوة التي في بدني، ليأتي الأسد وسوف أُريه ما هو المخلب."

خلال رحلتنا الطويلة، أُتيحت لي الفرصة للتعرُّف على هذا الشاب عن قُربٍ أكثر. لقد كان عديم الخبرة. حيث نشأ في النعمة والدلال. لم يسبق له أن رأى العالم من قبل، ولم يذهب في رحلات شاقة.

لم يُشارك في أي معارك ولم تُحلِّق سهام العدو حوله. لم يُقاتل مُحاربًا وجهًا لوجه، ولم يسمع صياح المعركة وضرب السيوف.

وبينما كنا نسير على هذا النحو ظهر أمامنا لصان. كانا يُريدان نهب ممتلكاتنا وقتلنا إذا لم نعطها له وقاومنا. كان أحدهما يحمل خنجرًا ضخمًا في يده، والآخر كان يحمل عصًا كبيرًا.

فقلتُ للشاب الحارس: "هيا، ما الذي تنتظره، الآن أين الشجاعة التي كانت منذ هنيهة! ها هو العدو، وها هي ساحة القتال!"

لكن الشاب أصيب بالفزع. حتى أنّه كان يرتجف من الخوف لدرجة أنّه أسقط قوسه وسهمه. الرحمة للأجداد الذين قالوا: "المحارب الحقيقي يتضح في ساحة المعركة"!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إنّ القطة هي أسد في اصطياد الفأر، ولكن إذا قاتلت نمرًا فإنها تصبح فأرًا.

جاءني زعيم القافلة وسألني قائلًا: "يا سعدي، قُل شيئًا، ماذا نفعل؟"

فذكرتُ له قول شخصٍ حكيمٍ: "إذا كان من الممكن تسوية أمر ما بالمال، فلا تُلق بنفسك إلى التهلكة."

وأضفتُ قائلًا: "سنُسلم ممتلكاتنا وننجو بحياتنا. فالمال يُكتسب مرةً أخرى، لكن الروح التي تذهب لن تعود."

ثم سلّمنا أموالنا وممتلكاتنا ونجونا بحياتنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأموال من أجل عيش حياة مريحة، وليس من أجل اكتناز أموال الحياة.

كنتُ أتجول في سوق حلب مع صديق حكيم لي. ثم سمعنا صوت متسول.

كان يقول: "أيها الأثرياء! إذا كان لديكم رحمة ولدينا قناعة، فلن يكون هناك أثر للتسول!"

أعطاه صديقي ما يستحقه. وقال له: "إنّ القناعة هي أعظم ثروة. فكما قال أجدادنا }القناعة كنز لا يفنى{."

سألتُ صديقي قائلًا: "برأيك ما هي القناعة؟"

"الصبر على ما عندك. وألا تضع نفسك في مهب رياح الطمع. فإنّ الرزق مرهون بنتيجة سعيك. والشخص الطماع لا يمكن أن يكون سعيدًا. فهو لا يشكر أبدًا على ما يحصل عليه. وأخيرًا يُقزّر الكسل."

وصلتُ مع صديقي إلى مكان مبيت القوافل. واتضح أنّ لدينا أصدقاء ينتظروننا هناك. فجلسنا على مقعد.

فسأل أحد أصدقاؤنا: "أين كنتم؟"

قلتُ له: "ذهبنا إلى السوق"، وذكرتُ له كلمات المتسول. فقابل الجميع الحديث بالحيرة والإعجاب. ثم بدأنا تبادل أطراف الحديث حول القناعة.

أخذ صديق مصري الكلمة وقصّ القصة التالية:

"كان هناك شقيقان في بلادنا. أحدهما يتعلم العلم، والآخر يكسب المال. ومع مرور الوقت، شق كل واحدٍ منهما طريقه الخاص. فأصبح أحدهما أعظم عالِم في البلاد، والآخر أصبح صاحب ثروة من ناحية ووزيرًا للمالية من ناحيةٍ أخرى.

ذات يوم قال الأخ الغني للأخ الفقير: [انظر، لقد أصبحتُ صاحب ثروة، وأنت لا تزال في الفقر.]

فأجابه الأخ الآخر الذي تأذى من هذه الإهانة: [يا أخي، مهما شكرتُ الله على

نعمتي سيكون قليلًا. لأنني ورثت الأنبياء. أما أنت فقد ورثت قارون.]"

كان هناك أيضًا رجلٌ أفغاني في حلقة محادثتنا. كان نادرًا ما يتحدث. هذه المرة شارك في الحديث وروى القصة التالية:

"كان هناك درويش في بلدنا. كان يحترق بنار الفقر، وكان يُرقع ثيابه الرقعة تلو الرقعة. ذات يوم أتيتُ إليه وقلتُ له: [يا أخي، لماذا لا تعرض حالتك على الناس؟ سيُساعدك أهل الهمة، وستتخلص من هذا البؤس.]

عندئذٍ قال لي: [يا أخي، من الأفضل أن أتحمل عبء المحنة على أن أتحمل عبء المِنة. أنا أفضل أن أموت في فقرٍ وحاجةٍ على أن أموت وأنا أعرض حاجتي على الآخرين. فإنّ الذهاب إلى الجنة بشفاعةِ الجيران يُعادل عذاب جهنم. في نظر المؤمن الحقيقي، الذهب والأرض واحد. فهو ليس لديه أمل ولا خوف من أحد. إذا لم يكن هناك ألم للجوع، لما سقط الطائر أبدًا في الفخاخ. وربما لم ينصب الصياد أي فخاخ. ملابس الرجل الغني ثمينة، لكن ملابس الرجل القديمة أثمن منه. ومائدته لذيذة، لكن الخبز الذي حصل عليه بشق الأنفس ألذ منه.]"

الشخص سيء الطباع، هو أسير لطباعه.

بعد أن أنهيتُ عملي في حلب قررتُ الذهاب إلى المدينة المنورة. فانضممت إلى قافلة. لم أكن أعرف أيًا من المسافرين. لكن مع مرور الوقت اندمجنا.

كان الطريق طويلًا وكان الطقس حارًا جدًا. وعندما رأينا واحةً، أوقفنا الجمال وقررنا البقاء هناك.

أخرجنا ما كان في الخُرج لدينا وأعددنا مائدة مشتركة. وكان الطعام أقل من عدد الأشخاص.

ثم اتضح أنَّ أحد الركاب كان شرهًا للغاية. فبدأ يأكل الطعام تقريبًا دون أن يتنفس. لم يقل الناس "لا تكن شرهًا إلى هذا الحد، ستجوعنا" نظرًا لأنَّ ذلك سيكون عيبًا.

وأخيرًا، أراد رجل عجوز من الركاب أن يقول شيئًا بطريقةٍ ضمنية فروى القصة التالية عن النبي صلى الله عليه وسلم:

أرسل شاه فارسي طبيبًا لخدمة المسلمين. بقي الطبيب في المدينة المنورة مدة عامين. ولم يتردد عليه أحد.

وذات يوم جاء الطبيب إلى النبي صلى الله عليه وسلم. إذ قال: "لقد أرسلوني لأعالج الصحابة. وقد كنتُ أنتظر كل هذا الوقت، لكن لم يأت أحد. وبهذا ضاع وقتي ولم أستطع أيضًا القيام بواجبي."

عندئذٍ قال له النبي صلى الله عليه وسلم:

"إنَّ أصحابي لديهم خصلة. وهي أنهم لا يأكلون ما داموا لم يتغلبوا على جوعهم، ويسحبون أيديهم عن المائدة وهم لا يزالون جائعين."
فتعجب الطبيب لهذا وقال: "إنَّ هذا أساس الصحة!". ثم طلب الأذن وعاد إلى بلده.

من الضروري أخذ العبرة من هذا القصة. فالشخص الحكيم لا يتحدث لكن إذا كان سيحدث أمرًا سيئًا يتحدث، ولا يأكل ولكن إذا كانت ستدهور صحته يأكل. وبهذا

يُصبح كلامه حكمة، وطعامه صحة.

أثّرت هذه القصة فينا لكنها لم تُحرّك شعرة في الرجل الشره. وعندما رأى رجلٌ من المدينة هذا روى قصةً أخرى لعلها تؤثر فيه:

كان هناك مُريد يُخطئ ويتوب ثم يُفسد توبته. فقال له شيخه الذي كان يرى هذا:

[لديك عادة الأكل بشراهة. والتوبة رباط النفس وهي أرق من الشعرة. فإذا واصلت ملء معدتك بهذا الشكل، ستصبح نفسك أقوى، وستكسر الأغلال، فما بالك بالشعرة.]

أخذ الرجل العجوز الكلمة مرةً أخرى وروى قصة.

ذات يوم مرض رجل صاحب منصب وثروة وذهب إلى الطبيب. فحصه الطبيب بعناية. ثم قال: [أكلتَ بشكل مبالغ فيه فوق مستوى تحمُّل البشر، ولهذا السبب مرضتَ.]

فسأل الرجل المريض: [كم يلزم من الطعام يوميًا؟]

قال الطبيب: [يكفي حفنتان من الطعام.]

[ما القوة التي يعطيها هذا القدر من الطعام للإنسان؟]

[هذا القدر سيحملك على ظهرك، أكثر من ذلك ستحمله أنت على ظهرك.]

الأكل متعة للنفس، لكن عندما نفرط في الأكل يصير سببًا للمعاناة. فحتى لو أكل المرء بقلاوة مع امتلاء معدته فإنّه يتأذى، وإذا أكل خبزًا جافًا مع معدة فارغة فإنّه يتذوق طعمه كما لو كان قد أكل البقلاوة.

إنّ الإنسان المولع بمعدته لن يمكنه النوم لليلتين. ليلة تفرغ فيها معدته وليلة يملأ فيها معدته.

القضاة يأكلون الكثير والكثير، والعابدون يأكلون حتى يملأوا نصف معدتهم، والزاهدون يأكلون حتى لا يموتوا، والشباب يأكلون حتى ينهوا طبقهم، والمسنون يأكلون حتى يتعرقوا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نظرتُ لأرى ما إذا كانت هذه الفحادثات التلميحية تُؤثّر على الشره. من ناحية كان يومئ رأسه بمعنى "نعم، إنّه كذلك"، ومن ناحيةٍ أخرى يستمر في الشراهة.

نتيجة لذلك، جاع أولئك الذين سردوا القصص لأخذ العبرة، وامتلأت معدة الشره حتى التخمة.

هذا المشهد ذكّرني بمعنى آخر فقلته لأصدقائي.

"بينما يجاهد الحكماء والعلماء لتوعية الناس بشيءٍ ما، يستمر السذج والجهلة في ملء جيوبهم. ونتيجة لهذا يبقى العلم والحكمة في جانب، والمال والثروة في الجانب الآخر."

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذا سقطت الجوهرة في الوحل فإنها تظل ثمينة. وإذا صعد الغبار للسماء فإنه يظل بلا قيمة.

كان الوقت بعد منتصف الليل. ولم أكن أشعر بالنعاس. فخرجتُ إلى الحديقة وبدأتُ أمشي.

كانت الأرض مظلمة ولكن السماء كانت مُضيئة. حدّقتُ في النجوم، التي تبدو مثل اللآلئ المتناثرة على قماش مخملي، والقمر الذي يُنير الأنحاء مثل القنديل.

ثم جلستُ في التعريشة، وبدأتُ أفكر في حياتي، وأحلم بمستقبلي.

عندما سمعتُ صوت حدوة، نظرتُ إلى بوابة الحديقة. كان القادم فارسًا. يا ترى من يمكن أن يكون في هذه الساعة؟

نهضتُ وسرتُ باتجاه البوابة. فإذا بصوت يقول: "يا مُصعب، هذا أنا!". عندها تعرّفتُ على صوت الأمير.

فتحتُ الباب على الفور. وقلتُ: "تفضل يا سيدي الأمير. بما أنك جئتَ في هذا الوقت فيجب أن تكون مسألة مهمة."

قال: "نعم، لم أستطع الانتظار حتى الصباح. ولم أستطع المغادرة مبكرًا بسبب بعض الأعمال. يجب عليّ التحدّث إلى سيدنا."

قلتُ: "حسنًا، تفضل إلى غرفة الضيوف."

ثم توجهتُ إلى غرفة أستاذي. كان هناك ضوء خافت بالداخل. كان يدعي على سجادة الصلاة. كان لزامًا عليه أن ينهض للتهجد.

فقلتُ: "أستاذي، لقد جاء الأمير ويريد مقابلتك. وقد أخذته إلى غرفة الضيوف."

ذهبنا معًا. قال الأمير: "سامحني على إزعاجك في هذا الوقت. المسألة هي ..." ثم صمت.

انتظر قليلًا، ثم نظر إليّ. أعتقد أنّه كان مترددًا. وبفضل فراسة أستاذي فطنَ لما

يدور في ذهن الأمير.

فقال: "سيدي الأمير، يمكنك الوثوق بمصعب. إنّه رفيقي وكاتم أسراري."

"حسنًا، سامحني. نظرًا لصغر سِنّه ترددتُ للحظة. أعتذر منك."

عندما أبدى اعتذاره تدخلتُ وقلتُ: "حاش لله، سيدي الأمير. أنت مُحق في ترددك."

توجّه الأمير مرةً أخرى إلى أستاذي.

"لقد فكّرتُ في حديثك السابق. وأدركتُ تمامًا أننا لا نرى سوى جزء صغير من خطر الباطنية. إنّ أمامنا عدو ماكر مجهول أبعاده وقوته الحقيقية غير معروفة. فهو لا يُرى شخصيًا مثل إبليس، لكنه في كل مكان بتأثيراته. يستمر في نشر الأوهام وتضليل الناس عن الحقيقة.

من الواضح أنّه ينبغي اتخاذ تدابير فعّالة للغاية. ولكن ما هي؟ إذا لم يتم القضاء على هذه الروح المُظلمة، فلن يكون هناك نهاية للفتنة والفساد. لقد فكّرتُ في الأمر ليل نهار، وبحثتُ عن حل.

وهذه الليلة شغلت المسألة نفسها ذهني، وطار النوم من عيني، فقمتُ وأتيتُ إلى هنا."

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يجب عليك إنشاء مدرسة الإبداع.

بعد الانتظار لبرهة، قال أستاذي: "يا سيدي الأمير، بعد لقائنا الأخير، فكّرتُ أنا أيضًا كثيرًا في هذه القضية. بحثتُ عن طريقة لطرد الفتن التي تسللت إلى أجسادنا وعلاج الفساد الذي سيحدث في المستقبل. وأخيرًا، وصلتُ إلى هذه النقطة: يجب عليك إنشاء }مدرسة الإبداع{."

"أي نوع من المدارس هذا؟"

"يجب أن تكون المدرسة في البناء الذي سيتم إنشاؤه تتواجد بها مدرسة وثكنة. حيث يجب أن يتعلم الطلاب العلوم الدينية من ناحية، والعلوم الدنيوية من ناحية أخرى. كما يجب أن يكون المعلمون وفقًا لذلك."

"تبدو وكأنها مدرسة لم يُرى لها مثيل من قبل."

"نعم، إنها كذلك. يجب أن تكون بعيدة عن الناس. فلا يجب أن يتمكن الجميع من الدخول والخروج. ويجب اختيار المدرسين والطلاب عن طريق ترشيحهم بواسطة إنبيق حسّاس. لأنه إذا تسلل الباطنية إليهم، فلن يترددوا في استخدامه للفتنة والفساد."

"بالطبع إنّه كذلك. ما نصائحك الأخرى؟"

"هناك حاجة أيضًا إلى مُرشدين من أجل التربية الروحية للطلاب. فإذا لم يتم تقديم تربية روحية، سوف يستخدم صاحب العلم والمهارة فضائله في سبيل نفسه. حتى أنّه يمكنه الانضمام إلى صفوف العدو ولو لمصلحة بسيطة."

"حسنًا، ما الذي يجب أن يكون المقياس عند اختيار الطالب؟ وما الذي يجب أن ننتبه إليه؟"

"أولاً وقبل كل شيء، الأمانة والثقة. لهذا، يجب إجراء بحث شامل عن أمهاتهم وآبائهم ومعلميهم، باختصار جميع المقربين منهم الذين يتعاملون معهم والذين تأثروا بهم."

"وماذا أيضًا؟"

"يجب اختيار الطلاب من بين الأشخاص الأكثر ذكاءً ورجاحةً وفطنةً وحُسن الطباع. أولئك الذين يستحقون هذه المدرسة من جميع الجهات، يجب أن يتم إلحاقهم بها. ولا ينبغي معاملة أي شخص بشكلٍ غير عادل. فلا يجوز أبدًا قبول شخص غير لائق، حتى لو كان ابن الوزير."

"ما هو عمر الطلاب الذين سوف يدرسون هنا؟"

"يجب ألا يكونوا كبارًا جدًا ولا صغارًا جدًا. وأنسب عمر لهذا هو سن السادسة عشر عامًا."

"لماذا السادسة عشر؟"

"في هذا العمر، يقل تشتت سن المراهقة بشكل كبير. كما أنّ الطالب سيضطر إلى الابتعاد عن والديه لفترةٍ طويلةٍ. فمن الأفضل أن يكون أكبر سِنًا قليلاً ليستطيع التحمُّل."

"حسنًا، فهمت. لقد استخدمتَ مصطلح ثكنة أثناء ذكر خصائص المدرسة، لماذا؟"

"جزء مهم من الشباب الذين سوف ينشئون هنا سيعملون في الاستخبارات. إنّه مجال خطير. عليهم الدفاع عن أنفسهم عند الضرورة. لذلك، يجب أن يكبروا أيضًا كمحاربين جيدين."

"هل سيتلقى جميعهم التعليم نفسه؟"

"في الأساس، نعم. ثم سيكون من الضروري الفصل بينهم حسب الموهبة والقابلية. فقد يكون البعض أكثر موهبة في العلم، والبعض في الفن، والبعض في الإدارة، والبعض في القتال."

"حسنًا، كم سنة ستكون هذه المدرسة؟"

"في الأساس أربع سنوات. لكن يجب أن يكون هناك تدريب إضافي للمهام الأكثر أهمية. للبعض حوالي سنتين، وللبعض الآخر حوالي أربع سنوات. كما يجب

اختيار الطلاب الذين سيخضعون للتربية الخاصة بعناية من بين الخريجين. وسوف يكشفون عن أنفسهم في الوقت المناسب."

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنت أرغب في ذلك أيضًا، لكنني كنت مترددًا.

ما قاله أستاذي أثار حماسي. وبدأت أفكّر قائلًا: "يجب أن أكون في هذه المدرسة أيضًا". وكلما تقدّمت المحادثة، اشتدت رغبتي وشغفي.

لا أعرف ما إذا كان أستاذي أدرك هذا بكرامته أم بفراسته، لكنه استدار إليّ فجأةً. إذ قال: "هل تريد الذهاب إلى هذه المدرسة أيضًا يا مصعب؟"

الذهاب يعني فراق أستاذي. لذا كنت مترددًا. فقلت: "يا أستاذي، أنا طوب طيع بين يديك. أينما وضعتني هو مكاني."

هذه الكلمة أسعدته وجعلته يبتسم.

"قريبًا ستبلغ من العمر ستة عشر عامًا. أنا لا أريد أن أفترق عنك أيضًا. لكن لا يمكنني أن أطلب منك البقاء معي إلى الأبد."

في نهاية الحديث قال الأمير: "بمجرد ذهابي إلى القصر، سأخبر والدي السلطان بما تحدّثنا عنه هنا. أنا متأكد من أنّه سوف يُعطي الأوامر اللازمة. فأنا أريد إنشاء هذه المدرسة بنفسي."

ثم التفت نحوي برهةً وقال: "وسيكون من الجيد وجود شاب مثلك مُخلص وذكي وراجح ولديه تربية في أساسها. فبالرغم من أن جدك المتوفى كان تاجرًا، إلا أنّه قد دعم القصر."

يا للدهشة! يبدو أنّه قد أجرى تحريات عني أيضًا. وبعد التفكير في الأمر قليلًا عذرته. فلقد كنت في مكانٍ يأتي إليه متنكرًا ويتحدث عن أكثر القضايا سرية. بالطبع سيُجري تحريات عني. ولقد أخبرته بتفكيري هذا أيضًا.

مما لا شك فيه أنّ جهاز الاستخبارات مثل عصب الدولة. فالدولة التي تمتلك جهاز استخبارات ضعيف مثل الجسد الذي يمتلك أعصابًا مُصابةً بالخلل.

تحدّث أستاذي والأمير فترةً وطوّرا الأفكار. واستمر الحديث حتى صلاة الفجر. وبعد الصلاة طلب الأمير الإذن وامتطى حصانه وذهب بعيدًا مثل الريح.

هناك استفادة كبيرة من البحر، لكن الأمان على الشاطئ.

كنتُ ممتنًا من خدمتي لأستاذي. لكن في الوقت نفسه، اشتقتُ إلى منزلي، خاصةً والدتي.

وفي إحدى أيام الجمعة ذهبتُ إلى منزل والدي كالمعتاد. في صباح اليوم الثاني، عندما عدتُ إلى منزل أستاذي، قابلتُ ضيفًا.

كان يُخبر أستاذي عن مشكلته. لقد أصبح فقيرًا ولم يعد يستطع رعاية أسرته.

كان يقول: "يا سعدي، ليس لدي عمل مُحدّد. والدخل الخاص بي لا يكفي. لقد ساءت حالتنا. أنت صديقي القديم. وأنا بحاجةٍ لمساعدتك."

فتساءل أستاذي قائلًا: "حسنًا، ماذا تريد مني؟"

"جد لي عملًا يدر عليّ دخلًا ثابتًا. أنا أعرف علم المحاسبة. لديك معارف في القصر. لن يرفضوا لك طلبًا."

"يا أخي، في خدمة القصر يتلازم أمل الخبز وخوف النفس. وليس من عمل الرجل الحكيم أن يعيش في خوف كل يوم من أجل الأمل."

"أنا رجلٌ نزيه. لا أسرق ولا أرتشي. فماذا يُخيف الرجل الطاهر؟"

"نعم، أنت شخص نزيه. لكن أحيانًا يتجاور الجفاف والرطوبة. الكارهون موجودون في كل مكان. سيقولون لقد فعل ذلك حتى لو لم تفعل شيئًا. إذا اشتعلت النيران، فإنها تحرق كل من حولها. هل تعرف قصة الثعلب؟"

"ما هذا، ما تلك الحكاية؟"

"كان أحد الثعالب يركض بسرعة. فسألوه: [ما نوع الخطر الذي رأيته جعلك تخاف وتركض إلى هذا الحد؟]

فأجابهم قائلًا: [كانوا يأخذون الجمال لخدمة الدولة، لذلك كنتُ خائفًا وهربتُ]

قالوا: [أيها الأحمق! إنك لستَ جملًا!]

قال الثعلب: [إذا أمسكوا بي وخرج أحدهم وقال هذا جمل كيف سيكون حالي؟ لمن سأشرح مشكلتي؟ من سيهتم بي وينقذني؟ يقولون }الشخص الذي لدغه الثعبان يموت حتى يأتي الترياق من العراق{]"

عند الاستماع إلى هذه الكلمات على مضض، تجهم الضيف وقال كلمات مليئة بالعتاب.

قال: "لقد عرفتك كصديقي، لذلك أتيتُ إليك. في وقت الرخاء، يبدو الجميع صديقًا. لكن الصديق الحقيقي ينكشف في وقت الضيق."

وجد أستاذي أنَّ كل ما قاله لم يُجدِ نفعًا. فقال: "إذا كُنتَ مُصِرًا، فسأبذل قصارى جهدي لتحقيق رغبتك. اذهب الآن وانتظر خبرًا مني."

ذهب الرجل. وجعلني أستاذي أكتب رسالةً مُوجهة إلى أحد معارفه في القصر. ثم أخذتُ الرسالة وسلَّمتها وانتظرتُ النتيجة عند البوابة. وبعد فترة جاءني رجل وأعطاني وثيقة. فأخذتها وأحضرتها إلى أستاذي. لقد كان فرمانًا. كان يُبلغ بتعيين الرجل.

بأمر من أستاذي، عثرتُ على الرجل ونقلتُ له الخبر. وبدأ العمل في وقت قصير. ثم تمت ترقيته بعد فترة.

بَدَا الأمر كما لو أنَّه قد نسينا. فهو لم يكن يأتي إلينا ولا يرسل أخبارًا. وهكذا جرى نهر الزمن. اعتقدتُ أننا لن نرى بعضنا البعض مرةً أخرى، لكنني كنتُ مخطئًا.

نظرتُ إلى الحديقة فوجدته منتظرًا عند البوابة. وقد كان رثَّ الثياب. أخذته إلى الداخل وأبلغتُ أستاذي. ثم قام بتوضيح حاله.

قال: "لقد تم الافتراء عليّ. فطردوني من منصبي. وزجوا بي في السجن. أنا في حالةٍ أسوأ من ذي قبل. لقد كنتَ مُحقًّا. ليتني أصغيتُ إليك!"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سوف أحدثك عن أمرٍ مهم.

كان الأمير يواصل زياراته ويُطلع أستاذي على التطورات الجديدة. وقد قرر استخدام قلعة في مكانٍ مهجور بين الجبال لمدرسة الإبداع.

كان الحرفيون يعملون دون توقف لإصلاح المبنى. وسوف تستغرق أعمال الإصلاح والصيانة مدة تصل إلى ستة أشهر.

وبينما كان الأمير يُشرف على أعمال البناء، كان يُحاول العثور على المعلمين والطلاب من خلال رجاله الموثوق بهم.

في البداية سيتم قبول مائة طالب، وفي السنة الثانية سيتم قبول مائة طالب آخرين، وسوف يستمر التنفيذ على هذا المنوال.

وفقًا لهذه الحسابات، كان من الممكن أن يتزامن افتتاح المدرسة مع نفس تاريخ بلوغي السادسة عشرة من عمري تقريبًا. كل ما كان عليّ فعله هو الانتظار بصبر.

قررتُ الاستفادة من أستاذي بشكل أكبر في الستة أشهر التالية. أخبرته بذلك أيضًا. فوافق وكان مسرورًا. وبناءً على ذلك زاد الوقت الذي نقضيه معًا.

كنتُ سعيدًا من الوضع. فقد كان أكثر اهتمامًا بي من ذي قبل. لكنها الحياة!

في بعض الأحيان يُغيّر حدثٌ ما مجرى الحياة تمامًا. وهذا ما حدث عندما حلمتُ بالذهاب إلى المدرسة.

سأروي الأحداث بإيجاز، لأنّ تذكُّر التفاصيل يُؤلمني بشكل لا يُوصف.

كانت فقط السنة الأولى للمدرسة. حين توفي السلطان السلغوري أبو بكر بن سعد وحل محله أميرنا. لكن مع الأسف، توفي بعد اثني عشر يومًا من توليه السلطة وجلوسه على العرش. فبدأ الصراع على العرش في القصر. واضطرب النظام والاستقرار.

وتم إغلاق "مدرسة الإبداع" التي تأسست بجهد شخصي للأمير. وتشتت الطلاب والمعلمين. فعدتُ إلى أستاذي شئتُ أم أبيتُ. وبقيتُ معه حوالي ثماني سنواتٍ

أخرى.

طعن أستاذي في السن كثيرًا. وفي هذه الأثناء توفت السيدة جولفيدان. وكنت كما وعدت أستاذي في البداية، دواةً في يده وعَصًا في طريقه. فكنت أساعده في كتابة أعماله. وإذا كان عليه أن يذهب إلى مكانٍ ما، كنت أصطحبه.

ذات يوم ذهبت إلى غرفته كالمُعتاد. وأخذت الدواة والمحبرة والدفتر فلربما جعلني أكتبُ شيئًا.

قال: "يا مصعب، ضع ما لديك على هذه المقرأة، ثم تعال واجلس أمامي. سوف أحدّثك عن أمرٍ مُهمٍ."

نفذت أوامره. ونظرت إلى أستاذي بفضول كبير. حيث كان هناك حزن عميق في وجهه وعينيه.

قال: "يا بُني، لقد اتخذنا قرارات بشأن المستقبل، لكن الأمور سارت بشكل مختلف. إنّه القدر... ومُهمتنا هي التشبث بالأسباب. والله هو الذي سيخلق النتيجة. باختصار، نحن بحاجة إلى تحديد هدفٍ جديدٍ لك."

"حسنًا أستاذي."

"كون الأمير أصبح سلطانًا في البداية ثم وافته المنية في وقت قصير، جعل أحلامنا هنا تبوء بالفشل. لم يبدو هذا الموت حدثًا عاديًا بالنسبة لي. من الممكن أن يكون للباطنية يد في هذا. لابُدّ أنهم فهموا نوايا الأمير."

"هل يمكنهم التسلل إلى القصر يا أستاذي؟"

"من الممكن. فمن الصعب معرفة متى وأين يضعون رجلًا. يبدو رجاله الأوفياء أحيانًا مثل الأشخاص العاديين لسنوات، ويكسبون ثقة الأشخاص المهمين، ومن ثم يمكنهم ارتكاب جريمة قتل بأمر من التنظيم."

"حسنًا، ماذا يجب علينا أن نفعل؟"

"لقد هُيئ لك طريق الأناضول. الآن يحكم السلاجقة هناك. الأتراك هم حاملو راية

الإسلام. أتمنى أن يحصلوا عليها."

"حسنًا، ماذا يجب عليّ أن أفعل هناك؟"

"اخبر السلطان السلجوقي عن فكرتنا لمدرسة الإبداع. فإذا أنشأوا المدرسة في أسرع وقت ممكن فهذا رائع، وإذا لم يفعلوا ذلك فلن تكون بلا عمل بالطبع. اجعل كل مكان مدرسة لك. اخبر الناس هناك بما تعلّمته هنا. مهما حدث، لا تعد. لا تدع اشتياقك لوطنك يُعيقك عن دربك."

قلتُ: "حسنًا أستاذي. طلباتك أوامر. سأتبع بدقة ما تقوله."

فقلتُ: "نعم يا أستاذي. سأضحي بحياتي في سبيل طريق الإيمان، تمامًا مثل الصحابي الذي أحمل اسمه. والله الذي يطّلع عليّ في كل مكان شاهدٌ على هذا، فكُن أنت أيضًا شاهدًا!"

وهكذا اتخذنا قرارنا. وودعتُ أستاذي. بكيتُ وأنا أفكر أنني ربما لن أراه مرةً أخرى. فعانقني ومسح دموعي بمنديله وقال:

"يا بُني، سأكون دائمًا معك روحيًا. بالرغم من أننا منفصلون جسديًا، إلا أننا معًا في الروح. وإن شاء الله نكون معًا في الجنة إلى الأبد. فالفراق مثل الدنيا تمامًا زائل."

بعد أن قال الكثير من الكلمات الجميلة مثل هذه، خلع رداءه الذي كان يرتديه أثناء الصلاة سنوات، وأهداني إياه. هذا هو التذكار الوحيد المُتبقي من أستاذي.

عدتُ إلى المنزل، وزرتُ والدتي ووالدي، وقبّلتُ أيديهما، وأخذت منهما الموافقة.

قبل أن أرحل، ارتديتُ ثوب الرحّالة الخاص بي، وتقلدتُ سيفي في حالة حدوث أي أمر طارئ، وعلّقتُ قوسي حول جسدي، وامتطيتُ حصاني الأشهب الذي كان هدية من والدي، وغادرتُ أرض شيراز وسلكتُ دربي. وكانت كل متعلقاتي كافية لملء حقيبة السرج.

كنتُ أركض نحو مجهول. لم أكن أعرف كيف ستكون حياتي المقبلة، ومن سألتقي، وما المغامرات التي سأعيشها.

وها أنا ذا هنا منذ ستة وستين عامًا. لم أشعر قط بالوحدة أو الغربة. لقد كان الله معي. لقد آمنتُ به، واستسلمتُ له، وتوكلتُ عليه.

وإذا قُدّر لي، فإنني أنوي الكتابة عن ما عشته في أراضي الأناضول. إنّ الدواة والمحبرة والدفتر دائمًا يقفون بجانبي مع رداء أستاذي.

لقد وجدتُ أنّه من المناسب أن أختتم هذا الفصل من دفتر ملاحظاتي بكلماتٍ موجزة من أستاذي، الذي أصفه بصفاتٍ مثل "بلبل شيراز" و"سيد الورود":

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقلتُ: "نعم يا أستاذي. سأضحي بحياتي في سبيل طريق الإيمان، تمامًا مثل الصحابي الذي أحمل اسمه. والله الذي يطّلع عليّ في كل مكان شاهدٌ على هذا، فكُن أنت أيضًا شاهدًا!"

وهكذا اتخذنا قرارنا. وودعتُ أستاذي. بكيتُ وأنا أفكر أنني ربما لن أراه مرةً أخرى. فعانقني ومسح دموعي بمنديله وقال:

"يا بُني، سأكون دائمًا معك روحيًا. بالرغم من أننا منفصلون جسديًا، إلا أننا معًا في الروح. وإن شاء الله نكون معًا في الجنة إلى الأبد. فالفراق مثل الدنيا تمامًا زائل."

بعد أن قال الكثير من الكلمات الجميلة مثل هذه، خلع رداءه الذي كان يرتديه أثناء الصلاة سنوات، وأهداني إياه. هذا هو التذكار الوحيد المُتبقي من أستاذي.

عدتُ إلى المنزل، وزرتُ والدتي ووالدي، وقبّلتُ أيديهما، وأخذت منهما الموافقة.

قبل أن أرحل، ارتديتُ ثوب الرحّالة الخاص بي، وتقلدتُ سيفي في حالة حدوث أي أمر طارئ، وعلّقتُ قوسي حول جسدي، وامتطيتُ حصاني الأشهب الذي كان هدية من والدي، وغادرتُ أرض شيراز وسلكتُ دربي. وكانت كل متعلقاتي كافية لملء حقيبة السرج.

Telegram:@mbooks90

كنتُ أركض نحو مجهول. لم أكن أعرف كيف ستكون حياتي المقبلة، ومن سألتقي، وما المغامرات التي سأعيشها.

وها أنا ذا هنا منذ ستة وستين عامًا. لم أشعر قط بالوحدة أو الغربة. لقد كان الله معي. لقد آمنتُ به، واستسلمتُ له، وتوكلتُ عليه.

وإذا قُدّر لي، فإنني أنوي الكتابة عن ما عشته في أراضي الأناضول. إنّ الدواة والمحبرة والدفتر دائمًا يقفون بجانبي مع رداء أستاذي.

لقد وجدتُ أنّه من المناسب أن أختتم هذا الفصل من دفتر ملاحظاتي بكلماتٍ موجزة من أستاذي، الذي أصفه بصفاتٍ مثل "بلبل شيراز" و"سيد الورود":

"كلُ نهاية بداية!"

Telegram:@mbooks90

ملاحظة للقارئ الذي بدأ قراءة الكتاب من النهاية:

"خذ العبرة من الماضي، ولا تكن أنت العبرة في المستقبل."

٢٧٠٧٢٣٩٠٦٥
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner